من كتابه (تاريخ الادب الايطالي) ص 112 ـ يجتث كل طموح لهم نحو الرخاء ونحو الطمانينة ، ويعاقب بقسوة ظالمة كل ارادة لهم للخروج من قشرتهم ، والارتقاء فوق ظروفهم الاجتماعية » .

ومع ذلك فان هناك، الى جانب الاقدار والكابوس الصارم ، شيئا آخر هو « البطولة » ، هو الصمود حتى النهاية فى النضال الذى يرافق سائر احداث اسرة مالافوليا والمعلم جيزوالدو . ان البطليين التاعسين لا يرضخان للمصائب، ولا ينحنيان امام المصائب والعوائق الرهيبة التى يضعها القدر فى طريقهما ، بل يسيران رافعي الرأس دون ان يعرفا اليأس والهزيمة .

ان الحتمية القدرية ليست حقيقة مطلقة فى الحياة ، بمعنى أن الانسان يجب ان يحني راسه مستسلما لها دون نضال . وكذلك هي فى روايتي فيرغا : فى حياة اشخاصه وتصرفاتهم ومعتقداتهم . انها ليست حقيقة مطلقة لا يمكن التغلب عليها بقوة الارادة ورجولة النضال ، بمقدار ما هي عقيدة مسيطرة على تفكير المؤلف نفسه . ان فيرغا يلح كل الالحاح فى ابرازها فى رواياته . وعلى الرغم من انها ليست حقيقة لا علاج لها ، الا ان المؤلف يبحث عنها عامدا ، ويريدها دون علاج لابطاله الذين يدعوهم (المغلوبين) لكي يحدد لهم قسمتهم تحديدا قسريا منذ الازل : اي أن «يعملوا ويتألموا» ـ كما يقول الناقد الايطالي سابينيو (Sapegno)

ان اشخاص فيرغا ليسوا من اختراع خياله . هذا صحيح ، ولكنهم مخلوقات آدمية ينتقيها هو من الواقع البائس انتقاء بلحمها ودمها ، ويعرضها على المسرح لكي تمثل ادوارها الحقيقية التى يلازمها البؤس والنحس . غير اننا فى هذا الواقع الذى يعرضه لنا المؤلف نلمس لدى فيرغا ميلا طبيعيا ـ أو هل نقول « حتميا » ، حسب اعتقاده بالحتمية ؟ ـ الى المأساة اكثر منه الى الملهاة، او الى بساطة الحياة وعاديتها . وقد يكون ذلك لان حياة جزيرة صقلية كانت حينئذ ـ كما صورها فيرغا ، وكما صورها من بعده جوزيبني تومازي دي لامبيدوزا فى روايته (الفهد) او (Il Gattopardo) كما هو عنوانها بالايطالية ، بكثير من الاغراق فى التشاؤم ـ منفى مليئا بالتعاسة والجهل والفقر والظلم .

يقول ماتزوني (Mazzoni) : « ان المؤلف يعطينا اشخاصه كما يريدهم هو ، ويجعلهم يتصرفون كما نحب نحن ، حتى فى اكثر حركات حياتهم سرية . انه يسمع اشد اصواتهم خفاء ، ويتجسس حتى على تنهداتهم فى ليالي الارق » ... وانا احب ان اضيف هاهنا ان فيرغا يستحضر اشخاصه ومعهم بيئاتهم الحقيقية . وعلى الرغم من انه كان يصر دائما على ان فنه لا صلة له بشخصه ، وينفي الذاتية عنه ، فان ما يضعه من كلام على افواه اشخاصه ينسجم كل الانسجام مع البيئة النفسية والروحية التى يحسها هو نفسه ويريد ابرازها ، اي مع عالمه الخاص . وطبيعي انه يقدم لنا الحقائق فى لمسات من يدفنان بارع ، لا وقائع تاريخية مجردة من حياة الجزيرة فحسب . والمساكين الذين يناضلون لاجل الرغيف ولاجل السلام فى جزيرتهم هم وحدهم الاشخاص الذين يتعمد فيرغا اختيارهم ليفصل على قياسهم فكرته الخاصة فى القدرية وفى المصير المحتوم وجبروته . غير اننا نراهم ، رغم الهزائم المريرة ، على استعداد دائم لمتابعة النضال بكل جدارة ، ومن غير هدنة . صحيح انهم قد ينتهون الى الخيبة والقنوط ، ولكنهم يسقطون سقوط الابطال ، لا سقوط الضعفاء والجبناء ، وفى بعض الاحيان قد يبلغ نضالهم ـ ولو متأخرا جدا ـ الى النصر ، والى استرداد المتاع الذى فقدوه ، كما راينا فى (اسرة مالافوليا) وفى بعض جوانب فى (المعلم السيد جيزوالدو) ايضا ، كما سأشرح ذلك فى ما يلي :

فى (اسرة مالافوليا) يناضل الشيخ نتوني طويلا ، وتناضل معه اسرته كلها كذلك ، لكي يتوصلوا الى استرداد (دار الزعرورة) . غير ان السيد نتوني نفسه لا ينتصر ، لسوء حظه ، الا بعد موته : ففى اللحظة الاخيرة يبشره حفيده اليسي بانه استطاع ان يسترد الدار . كان السيد نتوني حينئذ على عتبة العالم الآخر الذى لا عودة منه ، غير انه احس بأن الحياة لم تخدعه خداعا تاما ، وبأن العدالة ما تزال توجد على الارض .

واليكم ما تقوله الرواية :

« حين اخبروه بعد ذلك انهم استعادوا دار الزعرورة ، وارادوا ان يعيدوه معهم الى (تريتسا ـ Trezza) من جديد ـ كان حينذاك فى المستشفى طبعا ـ اجاب بنعم ، ثم نعم ، بعينيه اللتين عادتا الى الاشراق ، وكاد فمه ينفرج عن ضحكة عريضة : ضحكة اولئك الذين ما عادوا يعرفون الضحك ، او الذين يضحكون للمرة الاخيرة . ولكن الضحكة ظلت

مغروسة فى قلبه كالنصل . ذلك ما جرى لاسرة مالافوليا حينما عادوا يوم الاثنين فى عربة (العم الفيو) ليعيدوا جدهم معهم الى المنزل فلم يجدوه» (ص 245)

اذن فقد انتصر السيد نتوني على حياة الفقراء المريرة بنضاله الذى لم يكن لنفسه فحسب ، ولا اينال النصر وحده : بل لتظل ثمرة عنائه لاحفاده من بعده . ان النصر يظل دائما نصرا ، ولا يقلل من أهميته موت المحاربين الشجعان : فالنصر الحقيقي لا يجيء من دون تضحية . فى جميع الحروب هناك من يحارب ويسقط لاجل الآخرين ، وآخرون يفوزون بمكاسب تلك التضحية . فالمحارب انما يحارب لكي ينتصر وهو يعلم حق العلم بأن الموت ينتظره فى الحرب ، غير ان تضحيته لا تذهب عبثا الا اذا لم يستفد احد منها من بعده . والتضحية هنا ، ونضال السيد نتوني الطويل الشاق ، استفاد منهما آخر احفاده (اليسي) .

حتى المركب (العناية) انتصر على هياج الامواج والعواصف : كان حينا يمتلىء بالماء حتى ليخشى عليه من الغرق ، وحينا يخرج من مصارعة العواصف محطما . غير انه فى كل مرة كان يعاد اصلاحه ، فيعود سليما ومستعدا لصراع جديد مع عاصفة اخرى، واخيرا تخلى عنه اصحابه الى المرابي كروتشيفيسو تسديدا للدين وهو فى حالة جيدة ، وظل يعمل حتى وفاة صاحبه الاول .

اما فى رواية المعلم جيزوالدو فان جيزوالدو نفسه هو الذى انتصر . لقد راينا انه كان قد ولد فى اسرة بائسة . واليكم ما تقوله الرواية فى حياته النضالية :

« كان فى حركة دائبة : يعمل دائما ولا تستريح قدماه ابدا ، من هنا الى هناك ، فى البرد والحر والمطر ، وراسه مثقل بالافكار ، وقلبه متضخم بعدم الاستقرار ، وعظامه محطمة من التعب ، لا ينام اكثر من ساعتين اذا تيسر ذلك وكيفما تيسر : فى قرنة اسطبل ، او خلف سياج ، فى العراء او على الحجارة ، ياكل قطعة خبز اسود حيثما كان : على ظهر البغل ، او فى ظل زيتونة ، او على طرف حفرة ، فى الملاريا اوفى دوامة من البرغش لم يعرف الاعياد ولا عطلة الاحد ولا عرف قط كيف يضحك ضحكة مغتبطة ... ولا وجد لديه ساعة واحدة مثل تلك الساعات التى كان يستمتع بها اخوه (سانتو) على حسابه فى الحانة » (ص 78) .

وعلى الرغم من كل هذا البؤس والعناء فان دون جيزوالدو لم يكن قط رجلا متخاذلا : لم يستسلم الى مشيئة القدر ، بل كان يريد ، بأي ثمن ، ان « يخرج من قشرته ويرتقي فوق ظروفه الاجتماعية الاصلية » . وقد راينا في ما تقدم كيف استطاع بفضل عمله الدائب وتصميمه الحازم ان يصل الى مكانة اجتماعية مرموقة يحترمها الآخرون ، وان يصبح مرهوبا حتى لدى الشخصيات البارزة الضخمة فى بلده ، وان يقترن بفتاة من اسرة ارستقراطية . حتى ابنته الوحيدة اقترنت بأحد دوقات باليرمو .

صحيح انه فى النهاية كان لابد ان يقضي بالسرطان ، الا انه مات بطلا لا خاملا وضيعا . وعدا ذلك ـ وهذا مهم جدا ـ مات جيزوالدو واثقا من ان ابنته ـ ثمرة زواجه الوحيدة ـ لن تعرف البؤس والحرمان ، بل ستنعم بثمرة تضحيته وكفاحه .

ومن هم الذين كافحهم المعلم جيزوالدو ؟

لقد كافح الجميع ، وكافح كل شيء : كافح البؤس ، وضعة الاصل ، وقسوة الحياة ، وكبار الشخصيات فى البلد ، وتحكم والده المتعنت ، وحسد اخيه وجشعه ، وكافح كذلك حسد شقيقته وزوجها ، بل لقد كافح حتى (تاني ـ Tanni) الانتهازي، وهو ليس سوى زوج لخادمته (ديوداتا ـ Diodata) . . وكذلك كافح حقد الاخوين (تراو) شقيقي زوجته ، كما كافح غرور صهره الدوق ، ومساويء الكاهن (دون لوبي) وخبثه . وكافح الملاريا ، وقوى الطبيعة التى تعاكسه فى صف خصومه الناقمين الحاسدين . وفى كل مرة كان جيزوالدو يخرج من هذا الكفاح منتصرا ، حتى اللحظة الاخيرة التى ادار فيها وجهه نحو الحائط ـ كما فعل والده من قبله ـ « وبردت اطرافه فجاة ، ثم سكتت حركته نهائيا » ـ كما يقول المؤلف (ص 367)

لقد مات السيد جيزوالدو والسيد نتوني مالافوليا قانطين ، هذا صحيح ، ولكنهما ماتا بكرامة وانفة . كانا من الابطال الحقيقيين الذين يظلون متنكبين سلاحهم حتى النفس الاخير فى كفاحهم ضد حتمية الاقدار . وهذه البطولة فى الصراع

الانساني لا يجوز ، فى اعتقادي ، ان نخضعها لفكرة الحتمية وتحكم الاقدار ، كما يشاء النقاد الايطاليون ان يعتبروها فى روايات فيرغا . انها بطولة ، وليست خضوعا واستسلاما للاقدار .

ونجيء الآن الى النقطة الثانية فى روايتي فيرغا الكبيرين ، وهي (السمت والمشابه العربية) التى جعلناها عنوانا لهذه المحاضرة برمتها .

اننا هاهنا نصل الى نقطة فيها شيء من الحرج ومن اثارة الفضول معا . وما اظن احدا قد اثارها من قبل ، أو اهتدى اليها .

فى روايتي فيرغا الكبيرين وجدتني ازاء **بعض العناصر التى يبدو انها متاثرة بالطابع العربي ، مباشرة او غير مباشرة ، لان البيئات العربية واللغة العربية ما يزال فيها الى اليوم ما يشبهها .**

ومن المؤكد ان فيرغا لم يكن يعرف ان فى اعماله الادبية مثل هذه العناصر الاجنبية الواضحة. ولعله لم يخطر بباله قط ان كاتبا عربيا سيجيء يوما من بلد بعيد فى الشرق ليكشف عن سمات عربية فى ادبه .

ولكن التاثير العربي فى صقلية امر غير منكور، على كل حال ، ولا هو بالشيء الذى يمكن كتمانه ، فلقد حكم العرب الجزيرة قرنين من الزمن ، وكان طبيعيا لذلك ان يتركوا آثارا ملموسة فى اهلها ، ولاسيما اذا عرفنا أن تأثيرهم الاجتماعي والثقافي قد استمر اكثر من قرنين بعد خروجهم من الجزيرة .

لقد خطر لي فى البداية ان اجعل عنوان هذه المحاضرة ، وبشكل خاص هذا القسم منها : (اثر العرب فى أدب فيرغا) ، غير ان عدم يقيني التام من هذا التأثير مباشرة جعلني اكتفي بعبارة (سمات ومشابه عربية) ، وهي اقرب الى المنطق ، وربما كانت اقرب الى الصحة . وسأحاول فى ما يلي ان ابين المشابه اللغوية والروحية والواقعية بين البيئة الفيرغوية والبيئات العربية .

ان السمات التى اعنيها يمكن تصنيفها فى ثلاث فئات :

1 ـ المفردات والجمل

2 ـ العادات والبيئات الشعبية

3 ـ الامثال والحكم

وسأمضي الآن فى استعراض هذه الفئات واحدة واحدة :

1 ـ المفردات والجمل :

فى روايتي فيرغا الكبريين مفردات لا شك فى انها عربية الاصل لفظا ومعنى . ومنها الالفاظ التالية ، وهي كلها من رواية « ما لافوليا » ما عدا الاخيرة منها فهي من « المعلم جيزوالدو ») :

1)	CATRAME	قطران
2)	CARRUBBO	خروب
3)	BABAU	بعبع
4)	SOMMACCHI	سماق
5)	ZAFFERANO	زعفران
6)	SATANASSO	شيطان
7)	SALAMALECCHI	سلامات ، او مجاملات (من «السلام عليكم»)

والى جانب هذه المفردات استعمل فيرغا جملا مركبة ليست ذات لفظ عربي او طبيعة عربية فى كتابتها ، الا أن لها مثيلات فى التعبير العربي ، مما يبدو معه الامر غريبا اذا لم تكن هذ التعابير تحمل آثار الطابع العربي . واليكم بعض هذه العبارات ، مع ما يقابلها بالعربية ، واغلبها عامي ، ولكنني مضطر الى تحويله الى تعبير فصيح ، مع ثقتي التامة من ان فى البلدان العربية الاخرى ما يقابله :

1 ـ يضع حجرا على الماضي
(جيزوالدو 238)

1) Mettere pietra sul passato

2 ـ من اخذ مالك خذ روحه
(جيزوالدو 321)

2) A chi ti vuol pigliar la roba levagli la vita

3 ـ يعبيء هواء للصيف
(جيزوالدو 271)

3) Prendere il fresco per l'estate

4 ـ الفسيل القذر لا ينشر على السطوح
(جيزوالدو 275)

4) I panni sporchi si lavano in casa

5 ـ الامثال لم تكذب قط
(مالافوليا 14)

5) Il motto degli antichi mai menti'

6 ــ رآه بعينيه اللتين سيأكلهما الدود
(مالافوليا 16)

6) Li avevi visti con quegli occhi che dovevano mangiarseli i vermi

7 ــ فلان مثل الحيط المنخفض
(مالافوليا 73)

7) Io sono come il muro basso

8 ــ واقع بين المطرقة والسندان
(مالافوليا 85)

8) Stava fra l'incudine e il martello

9 ــ لا يسمح بأن تقف الذبابة على أنفه
(مالافوليا 97)

9) Non si lasciava posare le mosche al naso

10 ــ المصائب تعلم الحكمة
(مالافوليا 119)

10) Il giudizio viene colle disgrazie

— * —

وهناك كثير من مثل هذه العبارات الايطالية التى تقابل عبارات عربية مثلها وتطابقها كل المطابقة. وليس قصدي استعراضها جميعا بل تقديم بعض النماذج فحسب لكي انطلق بعد ذلك الى الفئة الثانية، وهي :

2 ــ المشابه فى العادات والبيئات الشعبية :

وهذه نقطة اخرى جديرة بالابراز والدرس ، وهي تتعلق بالعادات الشعبية التى رسمها فيرغا فى رواياته . ومن السهل ان نجد ما يماثلها تماما فى الحياة الشعبية العربية . وأنا أكرر انني اورد ما أعرفه فى بلدي ، يقينا مني بأن فى البلدان العربية الاخرى ما يماثله . وهاكم بعض تلك العادات :

1 ــ (مالافوليا ــ ص 44) ــ يدور الحديث على موت الابن باستياناتسو ــ وعند ذكر العادات الشعبية يعرفنا المؤلف كيف ان الاصدقاء يحملون الى بيت الفقيد هدايا من العجائن والبيض ، ومن خيرات الله .

ان مثل هذه العادة ما يزال متبعا الى اليوم فى القرى الاردنية ، مثلا ــ وليس من شك فى أن هناك مثله فى اقطار عربية اخرى ــ ففى القرى عندنا ليس الاصدقاء وحدهم هم الذين يحملون الى بيت الفقيد مختلف الهدايا ، بل تشترك القرية كلها فى ذلك كمعنى من معاني المؤاساة والمشاركة القلبية فى المصاب . وهم يحملون الارز ، والشاي ، والخراف، والدجاج ، والطحين . والقهوة . وحتى الحطب لطهو الطعام والخبز وما الى ذلك من الحاجات البيتية . والقرويون يؤدون هذه المشاركة اللطيفة لمساعدة اسرة الميت وتعزيتها ، من جهة ، ثم لانه لا يجوز ان تتحمل اسرة الميت وحدها كل النفقات ــ وهي غير قليلة ــ

2 ــ (مالافوليا ــ 80) فى ما يتعلق ببواعث الشؤم تقول الكنة سانتوتسا : « ان نقود العم كروتشيفيسو تحمل معها الدواهي ! ففى هذه الليلة ايضا سمعت الدجاجة السوداء تصيح » .

وعندنا ايضا اذا صاحت دجاجة مثل صياح الديك ــ وليس من الضروري ان تكون سوداء فقط ــ اعتبر ذلك نذير شؤم ، ولابد عندئذ من ذبحها فدى عن البيت الذى تصيح فيه .

3 ــ (مالافوليا ــ 93) ــ كان الحفيد نتوني يريد الاقتران ببربارة رغم ارادة جده وأمه ، وكان الجد يؤنبه قائلا : « هل ستتزوجها ؟ وانا من اكون ؟ وامك ، أليس لها عندك شأن ؟ حين اراد ابوك ان يتخذ له زوجة استشارني فى ذلك اولا » .

وفى رواية (المعلم جيزوالدو) كذلك حكاية مشابهة لهذه ، فى الصفحة 105 ، حين يسأل خادم الكنيسة السيدة بيانكا تراو اذا كانت ستتزوج السيد جيزوالدو ، فتجيبه بقولها : « اذا كان أخواي قد رفضا ذلك فأي رأي لي ؟ » ثم اضافت : « ان اخوي هما صاحبا الامر ... وهما وحدهما اللذان يقرران » .

وعندنا ، فى اكثر البلدان العربية ، ان لم يكن فيها جميعا ــ وعلى الاخص فى القرى والبيئات البدوية ، يتم الزواج بمثل هذه الطريقة : ليس عن رغبة أو حب متبادل ، بل باختيار الوالدين ، أو الاخ الاكبر الذى تقضي التقاليد بأن يقوم مقام الوالد فى حالة وفاة الوالد .

4 ــ (مالافوليا 111) ــ ونأتي الآن الى حادثة تبشر بفأل حسن ، وذلك عندما « تتظاهر ابنة العم حنة بسقوط قارورة الخمر من يدها ، وفيها نحو ربعها من النبيذ ، فتأخذ عندئذ فى الهتاف : افرحوا! افرحوا !.. ان اندلاق الخمر فال حسن ! »

عندنا يقال مثل هذا عن القهوة ، لا عن الخمر ، والاختلاف هنا بحكم البيئة والتقاليد فقط ، وذلك لان القهوة هي دليل الضيافة الحميمة الاعم استعمالا

لدى العرب ، وهي في ذلك كالخمر عند الايطاليين والغربيين عامة .

5 ـ (جيزوالدو 273) غضب جيزوالدو غضبا شديدا حين بلغه ان ابنته ايزابيلا قد هربت من المدرسة الداخلية، واصابه ما يشبه الصدمة المفاجئة، فاضطروا الى استدعاء الحلاق ليسحب منه دما .

كعلاج بدائي في بعض حالات المرض يلجأ الكثيرون في بعض البلاد العربية ـ ان لم يكن في جميعها ـ الى من يسحب منهم دما ـ وفي هذا نجد من يستخدم العلق لمص الدم ـ وهناك حلاقون ـ رايت بعضهم بنفسي في القدس قبل عدة اعوام ـ يعنون بتربية العلق في قوارير زجاجية كبيرة لهذا الغرض ، وهم يستخدمونه بالصاقه على ظهر المريض او عنقه لامتصاص شيء من دمه . وهناك من يستخدمون الشفرة او موسى الحلاقة ، يشطبون بهما ظهر المريض او اذنيه . كما ان العادة الاكثر شيوعا هي استعمال كاسات الدم لاراحة المريض ، ولاسيما اذا كان يشكو من ضيق الصدر او النزلة الصدرية ، او ما الى ذلك .

من هذه النماذج نرى اننا ازاء عادات متشابهة كل التشابه في البيئة الصقلية الفيرغوية وفي البلدان العربية . ولا يبدو لي شيء من الغرابة في ان تكون هناك سمات عربية في هذه العادات الصقلية ما دامت هي نفسها شائعة في الاقطار العربية حتى اليوم .

— * —

3 ـ الامثال والحكم :

في الامثال والحكم نجد دائما خلاصة حميمة لتجارب الشعوب عبر الاجيال ، كما نجد الصورة الاصيلة للعقلية والروح والاخلاق التي اكتسبها شعب ما نتيجة تجارب وصلات طويلة مع الشعوب الاخرى، سواء اكانت هذه الشعوب صديقة ام عدوة ، قريبة ام بعيدة .

وفي (اسرة مالافوليا) بنوع خاص اهتم فيرغا كثيرا ، وعامدا ، بالامثال الصقلية ، وراح يرددها بكثرة في كل فصل من فصول الرواية بمقدرته الفنية الفائقة التي نعرفها . ومن المؤكد اننا نستطيع ان نستخلص منها صورة المجتمع بكثير من الدقة ، سواء من الوجهة الخلقية ام الاجتماعية .

والواقع ان فيرغا قد استطاع ان يعطينا كل ذلك ببراعة الفنان الاصيل .

وهنا ايضا نجد المجال واسعا للتبصر والملاحظة . ومن بين الامثال الصقلية التي اوردها فيرغا في روايته (اسرة مالافوليا) اختار المجموعة التالية ، مع ما يقابلها من الامثال العربية العامية بشكل خاص ، (ولكنني مضطر الى ايراد هذه الامثال بغير اصلها العامي) :

1 ـ ما كان اوله شرطا فآخره سلامة ـ
1) Quel che e' di patto non inganna

2 ـ عمر الشقي طويل ـ
2) Uomo povero ha i giorni lunghi

3 ـ نم بخير يا جاري لكي انام معك ـ
3) Augura bene al tuo vicino che qualcosa te ne viene

4 ـ بعيد عن العين بعيد عن الخاطر ـ
4) Lontano dagli occhi lontano dal cuore

5 ـ الصديق عند الضيق ـ
او :
ـ عند الشدائد يعرف الاخوان
5) Carcere, malattie e necessita', si conosce l'amista'

6 ـ كل واحد يهيل النار على قرصه ـ
6) Ognuno tira l'acqua al suo mulino

7 ـ البيت الذي ليس له كبير ليس له مشير ـ
7) Ascolta i vecchi e non ti sbagli

8 ـ الرجل يمسك من لسانه ـ
8) L'uomo per la parola e il bue per le corna

9 ـ الدم لا يصير سما ـ
او :
ـ الدم لا يصير ماء ـ
9) Il sangue non e' acqua

10 ـ من يلعب بالماء تبتل ثيابه ـ
10) Chi cade nell' acqua e' forza che si bagni

11 ـ الحب والبغض ليسا باليد ـ
11) Amare e disamare non sta a chi le vuol fare

12 ـ من كان لا خير فيه لقديمه لا خير فيه لجديده
12) Chi cambia la vecchia per la nuova peggio trova

13 ـ من اكل على ضرسه نفع نفسه ـ
13) Chi ha bocca mangia, e chi non mangia muore

14 ـ شيء خير من لا شيء ـ
او بالعامية : (ريحة الجوز ولا عدمه) ـ
14) Meglio poco che nulla

15 ـ كل طير يحن الى عشه ـ
15) Ad ogni uccello il suo nido e' bello

16 ـ القناعة غنى ـ
16) Piu' ricco e' in terra chi meno desidera

17 ـ من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم ـ
او : من يدخل بلد العور يقلع عينه ـ
17) Chi va con zoppi all' anno zoppica

18 ـ مال الحرام لا يدوم ـ
18) Roba rubata non dura

19 ـ ليس للجائع آذان ـ
وبالعامية : (الجوعان مالوش اذان)
19) Ventre affamato non ragiona

20 ـ الملدوغ يخاف من جرة الحبل ـ
20) Le cose lunghe diventano serpi

— * —

والآن بعد ان فرغت من استعراض هذه الامثلة والنماذج العديدة ، والمشابه بين عادات وامثال وتعابير متعددة من بيئة روايتي فيرغا الكبريين والبيئات العربية ، لست اريد ان أجيء بحكم نهائي جازم فى تأثير العرب فى اعمال فيرغا الادبية ، بل اترك هذا لكم انتم . أما انا فقد اقتصرت مهمتي على ان القي ، بقدر الامكان ، نورا جديدا على بعض اعمال فيرغا الادبية ، محاولا بذلك فتح طريق جديدة لمن يشاء ان يتوسع فى دراسة فيرغا وأدبه الجميل المنتزع من البيئات الشعبية الصقلية المناضلة لاجل العيش ، والمكافحة ببطولة جبارة فى سبيل التغلب على حتمية الاقدار القاسية .

وقبل ان اختم هذه الدراسة العاجلة اود ان اذكر ما قاله لويجي كابوانا ، رفيق فيرغا ومواطنه وزميل مدرسته الادبية ، فى هذه الواقعية الفيرغوية الصميمة ، وهو : « ان فيرغا حينما تخطر على باله وضع فكرة قروية فى صورة فنية ، لا يقتصر على جمع بعض المعلومات ، بل ينقل صورة أرضهم . ليس كافيا لديه ان يكون اولئك الاشخاص ايطاليين ـ الفلاح الايطالي كلمة تجريدية ـ انه يذهب ابعد من ذلك كثيرا : يريد ان يكونوا صقليين .. يريدهم ان يكونوا من مقاطعة محددة ، بل من مدينة محددة ، بل من قطعة صغيرة من الارض بحجم الكف ... عند ذاك فقط يقف » .

ان هذا التحديد ينطبق كل الانطباق على روايتي فيرغا اللتين استعرضناهما فى هذه العجالة : فلقد كان ادب فيرغا منتزعا من صميم الارض البائسة التى راى فيها المؤلف النور ـ وان لم يعش فيها كثيرا ، بل قضى الشطر الاكبر والاهم من عمره فى الشمال الايطالي الذى ينعم بالثراء والرخاء والحيوية العاملة فى النهار والليل .

لقد كان فيرغا بحق ابن بيئته ، وكذلك كان ادبه الخالد ، النابع من نفس تشعر ببؤس الآخرين ، وبنضالهم القاسي فى سبيل العيش .

وطبيعي انه ، وهذا ادبه ، لا بد من ان يعكس فيه الروح الصقلية العامة ، بكل ما فيها من رواسب وتأثيرات انطبعت فى حياتها على مدى الاجيال . ومن هذه التأثيرات ما لمسناه الآن من المشابه والسمات العربية فى البيئات التى وصفها فيرغا فى روايتيه الكبريين : (اسرة مالافوليا) و (المعلم السيد جيزوالدو) .

لغة الموسيقى كأداة للتعبير الفني

زرياب المتوفى سنة 238 هـ.

الأستاذ سعيد الديوه جي

عضو المجمع العلمي العراقي

ابو الحسن علي بن نافع مولى امير المؤمنين الخليفة المهدي بن المنصور العباسي ، كان اسود اللون ، حلو الشمائل ، جميل الصوت ، فصيح اللسان ، فلقبوه « بزرياب » تشبيها له بطائر غرد ، حسن الصوت ، يقال له « زرياب » . نشأ زرياب في بغداد ، وهي اذ ذاك : دار السلام ، وقبة الاسلام ، مقر الخلافة ، ودار العلم والادب والحكمة ، ومجمع اهل الفنون والصناعات ، حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وهو ما حمل الامام الشافعي (رض) ان يقول لمن لم ير بغداد : « ما رايت الدنيا ولا الناس » .

وزرياب يتقلب في قصور الخلافة ، وما فيها من ترف ونعيم ، وخمائل باسقة ، وازهار عبقة ، وجنات تجري من تحتها الانهار ، وملاعب تميس فيها كواعب ، قد جمعن الظرف والادب ، والفن والجمال والدلال .

كن فتنة الناظر ، وغرة العابر ، وخل المقيم ، مما حمل الكتاب والشعراء ان يهيموا بوصفها ، واتخذوا من حدائقها وملاعبها المسارح التي مثلت فيها فصول « الف ليلة وليلة ».

في هذا المحيط الزاهي نشأ الفتى زرياب ، الذكي الفؤاد ، الدقيق النظر ، الصافي البصيرة ، فكان يتقلب في نعيمها ، ويتفيأ ظلالها ، ويستمع الى كواعبها ، ويتصل بمن يرتادها من اهل الادب والفن ، فيقتبس من علمهم ، وينهل من ادبهم : يأخذ احسن ما يسمع ، ويختار خير ما ينفع ، فحصل على ثقافة جامعة في الادب والعلم والفن ، ولكنه كان يؤثر الغناء على غيره ، وله من صوته الجميل خير مساعد .

لازم اسحاق الموصلي ـ استاذ المغنين في عصره ـ ليأخذ عنه ما لم يجده عند غيره . واسحاق الموصلي : من علماء عصره ، ومكانته من العلم والادب والشعر ما يقول عنها ياقوت الحموي : « لو اردنا استيعابه لطال الكتاب ، وخرجنا عن غرضنا من الاختصار . ومن وقف على الاخبار ، وتتبع الآثار علم موقعه » .

كان يدخل على المأمون مع اهل العلم والادب والرواة ، ثم كان يدخل مع الفقهاء ويده في يد القضاة، حتى يجلس بين يدي المأمون ـ وكان المأمون يقول عنه : « لولا ما سبق لاسحاق على السنة الناس ، وشهر به من الغناء عندهم لوليته القضاء بحضرتي ، فانه اولى به واحق واعف ، واصدق تدينا من هؤلاء القضاة » .

اخذ زرياب عن هذا العالم الاديب ، والفنان البارع ، واقتبس من ادبه وفنه . وكان اسحاق يعنى بهذا الفتى لما رآه عليه من الذكاء والفطنة وسرعة الاخذ كما انه من موالي امير المؤمنين ، فكان يحضره مجالسه التي يعقدها في داره ، والتي كانت مجمعا

لاهل الفنون والآداب ، وزرياب ينهل من كل ما يروق له ، وما يؤهله ان يخلف استاذه فى مكانته .

بذل اسحاق عناية خاصة فى تدريبه وتعليمه الاصوات التى يضعها ، والايقاعات التى يبدعها . وكان الفتى النابه ينصرف الى ما يلقيه استاذه ، ويتأمل فى اصواته ويدقق مواضع القوة فيها ، فكان فى طليعة الذين يأخذون عنه ، وهذا ما حمل استاذه على مضاعفة العناية به ، والانصراف الى تعليمه كل نادر وغريب ، حتى كان من طلابه الذين يفاخر فى تعليمهم وتهذيبهم .

كان زرياب كلما تلقى صوتا من استاذه اسحاق — او من غيره — تلقف الصوت ورردده مع نفسه حتى يتقنه ، فاذا عاد الى داره واختلى بنفسه ، اجرى على الصوت ما يبدو له اذا ما غير فى ترديده ، فلم يزل يبدل وينقح ويهذب فى الصوت ، حتى يبتكر صوتا جديدا جميلا قائما بذاته لم يسبق اليه.

وهكذا كان دابه فى كل صوت يسمعه ، او ضربات يتلقاها من شيخ المغنين اسحق الموصلي ، فانه يدخل عليهما من التعديل والابتكار ما يجعلهما من اجمل ما ابدعته قريحة هذا الفتى الناشيء .

اشتغل زرياب بهدوء وسكينة ولم يطلع احدا على ما كان يقوم به ، حتى استاذه الذى تربى بين يديه ، واخذ عنه ، فانه لم يكن يعلم ما عند زرياب من روائع الاصوات — وزرياب مستمر التردد الى استاذه ، يسترق من اصواته ، ويلتقط من ظرفه وادبه ، ويواصل التهذيب والتحسين والابتكار ، حتى صار يطمع ان يخلف استاذه فى فن مبتكر ، بل كان يطمع الى اكثر من هذا — وهو ان يبهر استاذه بما لم يسمع مثله .

اخذ زرياب يترقب اليوم الذى يباغت فيه المجتمع بفن دقيق مبتكر ، يعجز استاذه — استاذ الفن والطرب فى بغداد — عن الاتيان بمثاله ، مما حمله على حسده وتهديده بالقتل ان لم يرحل عن بغداد ، ويحافظ على منزلته التى كان عليها فى بلاط الرشيد .

— 2 —

حضر اسحاق الموصلي مجلس الرشيد ، وتشعب الحديث فى الأدب والفن ، فطلب الرشيد من اسحاق مغنيا مجيدا للصنعة . لم يشتهر مكانه اليه.

واسحاق كان يتقرب الى الرشيد بكل ما يؤنسه، ويطرفه بما عنده من اصوات وظرف وادب ، واراد ان يتحف الرشيد بأحد تلاميذه — من موالي دار الخلافة — لما كان يعرف فيه من الذكاء والفطرة وسرعة التلقي عنه . فقال اسحاق للرشيد يا مولاي: عندي تلميذ — وهو مولى لكم — اسود اللون . عذب الشمائل ، حلو التفريد ، سمعت له نزعات حسنة، ونغمات رائعة ، ماتاطة (1) بالنفس ، اذا انا وقفته على ما استغرب منها — وهو من اختراعي، واستنباط فكري ، واحدس أن يكون له شأن — فان اذن لي امير المؤمنين قدمته اليه . ولم يعلم اسحاق ان هذا الذى يتوسم فيه الذكاء والفطنة سيغني امير المؤمنين بما لم يحسنه اسحاق . وسيباغته بما وضع وابدع.

امره الرشيد باحضاره — لعل حاجته تكون عنده ، وهكذا فان الساعة التى كان يترقبها زرياب قد اتته عفوا ، فقد امر الخليفة باحضاره اليه ليغني امام استاذه الذى اخذ عنه .

اخذ زرياب يعد عوده ، واحسن ربط اوتاره ، واختار الاصوات التى سيغني الخليفة بها ، ويبز استاذه ويفوقه .

حضر زرياب مع استاذه اسحاق يحمل العود الذى قد اعده لنفسه ، وهو يختلف عن عود استاذه، ومثل امام الرشيد ، واستاذه فخور بتلميذه الذى سيغني امير المؤمنين بما استنبطه هو ولقنه اياه .

كلم الرشيد زرياب ، فأجابه زرياب بأحسن منطق واوجز خطاب ، مع فصاحة لسان وظرف وادب .

سأله الرشيد عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم احسن ما لا يحسنه الناس ، واكثر ما احسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك، فان اذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك .

بهت استاذه اسحق مما سمع ، ولم يكن يتوقع هذا ، فهل يجرؤ احد امام اسحق الموصلي ان

---

(1) لاصقة

يقول ما قاله هذا التلميذ الناشيء ؟ وصار يترقب سماع الصوت بدهش وعجب .

امر الرشيد باحضار عود استاذه اسحق ليغني زرياب . فلما قدم اليه وقف عن تناوله وقال : يا امير المؤمنين : لي عود نحته بيدي ، وارهفته باحكامي ولا ارتضي غيره ـ وهو بالباب ـ فليأذن لي امير المؤمنين في استدعائه . فأمر الرشيد بادخاله اليه .

تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي دفعه له ـ عود استاذه ـ وقال له الرشيد : ما منعك ان تستعمل عود استاذك ؟ فقال زرياب : ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان كان يرغب في غنائي فلابد من عودي . فقال له الرشيد : ما اراهما الا واحدا .

فقال زرياب : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي ـ وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه ـ فهو يقع من وزنه في الثلث او نحوه . واوتاري من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة . وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل الاسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تاثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها . فاستبرع الرشيد وصفه واذهل اسحق ما سمع . ثم اندفع زرياب وغنى :

يا ايها الملك الميمون طائره
هارون راح اليك الناس وابتكروا

ـ 3 ـ

سقط في يد اسحق فقد سمع من احد تلاميذه ما فيه من الروعة والاتقان والابتكار ، مما جعل امير المؤمنين يعجب به غاية الاعجاب ، ويؤكد على اسحق : انه لولا ما يعلمه عنه من الصدق لانزل العقوبة به ، اذ لم يطلعه على ما قد ابتكره هذا الفنان المبدع ـ وهل يترك اسحق الموصلي زرياب معه في بغداد يتبوأ مكانته ؟ بل يسمو فوقه فيبعده عما هو عليه ، وتكون له زعامة الغناء في دار السلام .

فلابد من ان يصارحه بما يكنه له صدره من الحسد ، وان بقاءه لا يمكن ان يكون في بغداد ، والا يؤدي به الى موته .

خلا اسحاق بزرياب وقال له : يا علي ، ان الحسد اقدم الادواء وادوؤها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك ، وعلو طبقتك . وقصدت منفعتك ، فاذا قد اوتيت نفسي من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا اصاحبك عليه ـ ولو انك ولدي ـ ولولا رعيي لذمة تربيتك ، لما قدمت شيئا على ان اذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في اثنتين لابد لك منهما : اما ان تذهب عني في الارض العريضة ، لا اسمع لك خبرا ، بعد ان تعطيني على ذلك الايمان الموثقة ، وانهض بذلك لما اردت من مال وغيره ، واما ان تقيم على كرهي ورغمي مستهدفا الي ، فخذ الآن حذرك مني ، فلست والله ابقي عليك ، ولا ادع اغتيالك باذلا بذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك .

خرج زرياب وهو يفكر بالامر ، فهو يعلم ان استاذه لا يحجم عن قتله اذا اقام في بغداد ، ولابد له من الرحيل عنها في بلاد الله الواسعة ـ وعلى هذا عاد الى استاذه وابدى له رغبته في الرحيل عن بغداد ، والتوجه الى بلاد المغرب بعيدا عن اسحاق وبغداد ـ هذا روع اسحاق وزال عنه ما كان في قلبه من هم ، وساعد زرياب بما يحتاجه من مال .

وبعد ايام فرغ الرشيد من شغل كان منغمسا فيه ، واشتاق الى سماع اصوات زرياب ، فأمر اسحاق الموصلي باحضاره .

واسحاق من دهاة عصره ، قد ارضى الخليفة ورجال دولته في تصرفه ورجاحة عقله ، فهل يعجز عن اجابة الخليفة بما يصرفه عن زرياب ؟

قال اسحاق : ومن لي به يا امير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون ، يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو الا ان ابطات عليه جائزة امير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهوين بصناعته ، فذهب مغاضبا ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لامير المؤمنين ، فان كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه .

سكن الرشيد الى ما قاله اسحاق ، وقال : على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير .

وهكذا تمكن اسحاق من صرف زرياب عن بغداد ، وصرف الرشيد عن زرياب ، وصرف الهم عن قلبه .

— 4 —

نسي امر زرياب في المشرق ، ولم نقف على ذكر له بين المغنين الذين نبغوا في العصر العباسي . ومع أن ابا الفرج الاصفهاني ترجم في كتابه (الاغاني) لاصحاب الاصوات الذين عانوا صناعة الغناء في الشرق ، فانه لم يتطرق الى ذكر زرياب والاصوات الجميلة التي وضعها — ذلك لأنه اول نبوغه هدد بالقتل ان لم يرحل عن بغداد — فرحل الى بلاد واسعة، ووجد أهلا غير أهله ، واقبالا لم يكن يتوقعه، فكان زعيم الغناء في الاندلس والمغرب — كل هذا ولم يدون اهل بغداد ما ابدعه فتى اسحاق الموصلي الذي خرج من بغداد خائفا يترقب .

توجه زرياب الى الشام ، ومنها الى مصر ، ومنها ركب البحر قاصدا المغرب ، ولما وصل تونس اتصل بزيادة الله بن الاغلب (201 — 208 هـ) وحظي عنده ، فكان يحضر مجالسه ، ويشارك بما يدور فيها من أدب وفن ، ويغنيه ، فأعجب به ابن الاغلب وقربه اليه .

وفي احد الايام من سنة 206 هـ طلب ابن الاغلب من زرياب أن يغنيه ، فغناه بأبيات لعنترة الفوارس :

فان تك امي غرابية
من ابناء حام بها عبتني

فاني لطيف ببيض الظبا
وسمر العوالي اذا جئتني

ولولا فرارك يوم الوغا
لقدتك في الحرب او قدتني

ففضب ابن الاغلب من تعريضه هذا ، وامر بصفع قفاه ، واخراجه من عنده ، وقال له : ان وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك .

ولا نعلم سببا لتعريضه بالامير الاغلبي ، وزرياب من اذكياء عصره ، فطن دقيق الملاحظة ، فهل كان هذا هفوة من زرياب ؟ او خاطر خطر له ؟ وربما كان لامر في نفسه — وعلى كل فقد بدر منه ما اغضب ابن الاغلب ، واوجب خروجه من تونس قاصدا بلاد الاندلس .

— 5 —

وكان اهل الاندلس يتطلعون الى ما في الشرق من حضارة زاهية ، وعلم وادب وفن ، وجدوا في الاستفادة مما عند القوم ، فرحل الكثير من اهل الاندلس الى بلاد الشرق ، واخذوا عن علمائه وادبائه، وتعلموا فنونه وصناعاته ، ورجعوا الى بلادهم ينشرون ماحملوه معهم .

كما رغب الامراء الامويون بنوابغ اهل الشرق، وشوقوهم بالرحلة الى بلادهم ، وبذلوا لهم الاموال الوافرة ، وقدموا لهم كل مساعدة ، ليستفيدوا من علمهم وفنهم . وكانوا يبذلون الاموال في الحصول على ما يستجد في الشرق من كتب قيمة . فقد بذل الامير الحكم لابي الفرج الاصفهاني الف دينار قيمة نسخة من كتابه الاغاني قبل ان ينتشر في الشرق .

هذا الاقبال من اهل الاندلس حمل العلماء وارباب الفنون ان يمموا شطرها ، ويرحلوا اليها ، وينشروا علومهم ومعارفهم فيها . فرحل عدد منهم الى الاندلس ، ونالوا من امرائها واهلها من الحفاوة والاحترام والاموال الوافرة ، ما حملهم ان يستقروا في هذا البلد الطيب ، واثروا آثارا حسنة في التدريس والمحاضرة والتاليف .

كتب زرياب الى الامير الحكم بن هشام ، يعلمه بمكانته في الغناء ، ويعرض عليه التوجه اليه . فسر الحكم بهذا ، وكتب اليه مرحبا به ، وارسل لاستقباله وتدبير سفره مغنيه منصور اليهودي .

ولما كان في الجزيرة الخضراء ، بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى بلاد العدوة ، فثناه عن ذلك رسول الحكم ، وبين له شغف عبد الرحمن بن الحكم بالغناء والموسيقى . ورفع منصور اليهودي امر زرياب الى عبد الرحمن يعلمه بمكانته ، وعبد الرحمن هذا من اكثر الامراء الاندلسيين شغفا بالآداب والفنون والغناء . يحضر مجلسه العلماء والادباء وارباب الفن — وخاصة المغنون والموسيقيون — وهو يجزل لهم العطاء . سر عبد الرحمن بخبر زرياب ، وكتب اليه يعلمه بتطلعه اليه ، والسرور بقدومه عليه ،

ويمنيه ويرغبه . كما كتب الى عماله على البلاد التى سيمر بها زرياب ، ان يحسنوا اليه ، ويقدموا اليه كل ما يحتاجه ، ويوصلوه الى قرطبة .

وارسل الى احد اكابر مواليه ان يتلقاه ببغال وآلات حسنة . دخل زرياب قرطبة ليلا ـ صيانة لحرمه ـ وامر الامير ان ينزلوه فى دار جميلة من احسن الدور ، وان يحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وان يحملوا اليه الخلع .

وبعد ثلاثة ايام استدعاه ، ورحب به اجمل ترحيب ، ودعاه الى تناول الطعام معه ، مع اولاده الكبار ، وامر ان يفرض له ولاهله من الرواتب والخلع ما يقدر بآلاف الدنانير سنويا ، واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار سنويا .

وزرياب قد اعد نفسه لمثل هذا اليوم الذى كان يترقبه ، فهو فى كنف امير معجب به ، مشغوف الى سماعه ، فأبدع فى الاصوات التى كان يغنيه بها ، فما ان سمعه عبد الرحمان حتى استهواه ، واحبه حبا شديدا ، واطرح كل ما سواه من المغنين ، وادناه من مجلسه ، وامر بفتح باب خاص لزرياب يستدعيه منه متى اراده . وزرياب قد جمع الى ما امتاز به من الغناء ، عدة مزايا رفيعة : كان شاعرا عارفا بفنون الأدب ، ونطف المعاشرة والظرافة ، وعنده من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكية ، مالم نجده عند غيره من اهل صناعته .

كيف لا يجمع زرياب هذه الصفات الجملية ، وهو الذى تربى فى بلاط العباسيين ، وتقلب فى نعيمهم ، وتنقل فى جنائنهم وخمائلهم ، وحضر مجالسهم ، ولازم اعالي القوم فى العلم والادب والفن ـ ربيب المهدي العباسي ، وتلميذ اسحاق الموصلي ، وخريج مدرسة بغداد دار العلم والحكمة والفن . هذه الخصال اثرت فى اهل الاندلس ، حتى اتخذه ملوكهم وخواصهم قدوة حسنة فيما سنه لهم من قواعد وآداب ، واستحسنه من أطعمة وثياب ، وما ابتكره من عطور ـ وبقي أثر هذا فيهم الى آخر ايام اهل الاندلس منسوبا اليه .

وهكذا انقادت الدنيا لزرياب ، فقد كان مرجع القوم في الغناء وفى التأثيرات الاجتماعية ، تسمع كلمته فى البلاط الاموي ، وينقاد اليه سراة القوم ووجهاؤهم ، يبذلون له العطاء ويتوقعون رضاه ، حتى قالوا : يؤثر على بلاط الامير عبد الرحمن اربعة اشخاص : فقيه : يحيى بن يحيى الليثي ، وموسيقي: ابو الحسن زرياب ، وامراة : السلطانة طروب ، وخصي : نصر .

ومع انه كان مسموع الكلمة فى البلاط الاموي ، الا ان عقله منعه عن التدخل فى شؤون سياسة البلد ، وتركها لغيره .

صرف نفسه الى فنه الذى كان سبب ظهوره ونبوغه ، لانه علم حق العلم ان خير طريق للنجاح فى الحياة هو تجنب ما لا نصيب له فيه ، والانصراف الى فنه الرفيع الذي ينقاد اليه الامير ورجال سياسته ، على اختلاف ميولهم ورغباتهم ـ وعلى هذا فلا نرى له ذكرا فى الحوادث السياسية ، التى كانت على عهده ، فهو مغني البلاط وكفى .

انصرف زرياب الى الغناء والابتكار فيه ، وشغل بهذا كل مواهبه وقابليته ، واطلع على ما فى الاندلس من الحان ، اخذ بعضها عن سكان البلاد الاصليين ، فكانت هذه عاملا جديدا فى تطعيم الاصوات التى يبتكرها ، كان الغناء قد شغل كل وقته حتى اذا رقد فى منامه ، فانه كان يواصل تفكيره فى الاصوات المختلفة ، والاشعار التى تناسب كل لحن يغنيه ، فلم تنقطع سلسلة افكاره عن هذا الفن الجميل . فاذا آوى الى فراشه واهتدى الى لحن جديد ، او شعر جميل ، هب من نومه مسرعا ، فيدعو جاريتيه غزلان وهنيدة ، فتأخذان عوديهما ، ويأخذ هو عوده ، ويطارحهما ليلته ما اهتدى اليه من لحن ، ويكتب الشعر الذى نظمه ، حتى اذا اتقنتاه عاد الى فراشه .

وعلى هذا قال عنه معاصروه : ان الجن كانت تطارحه الالحان ليلا فيتعلمها . وما الجن الا شغفه بهذا الفن الرفيع الذى كان قد اخذ عليه كل وقته ـ حتى عند النوم فانه كان يحلم فى ترديد الاصوات وترجيعها ، هذا هو الالهام الفني ـ جنون الفن ـ وهو ما قيل عن كثير من الشعراء والفنانين الموهوبين الذين يبدعون فى شعرهم وفنهم . وكم ذكروا ان للشعراء شياطين يوحون اليهم زخرف القول ، فياتون بما لم يات به غيرهم . وما شياطينهم الا

انصرافهم الى الشعر وكثرة تفكيرهم فى محاسنه واوزانه ، وروائعه ، فيأتون بما لم يتهيأ لغيرهم .

— 6 —

كان لزرياب معهد يقصده اصحاب الحناجر الرخمة، والاصوات الجميلة ، يتلقون عنه الالحان ، وما ابدعه من الاصوات والايقاعات .

ولم يكن زرياب يقبل احدا فى معهده ، الا بعد ان يقف على نبرات صوته ، وصلاح حنجرته ، وقابليته الى تلقي الالحان والاصوات ، وعلى هذا فقد كان يختبر من يقصده للأخذ عنه — وقد حدثنا المقري عن كيفية اختباره لمن يقصده فقال :

« وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت — المراد تعليمه — من غير المطبوع ، امره أن يصيح بأعلى صوته : يا حجام . او يصيح : آه . ويمد صوته ، فاذا سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا لا يعتريه غنة ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف انه سوف ينجب ، واشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك ابعده .

وهكذا بعد ان يختبر من يقصده ، ويتحقق صلاحه ، يسلمه الى الذين يأخذون عنه ، فيتعهدون تدريبه تدريبا اوليا ، حتى اذا وقف على مباديء هذا الفتى الجميل ، تعهده بنفسه مع الذين يأخذون عنه . فاذا حضر التلميذ عنده للأخذ عنه ، كان يرشده الى كيفية الجلوس ، وطريقة اخراج الصوت من الفم ، والطرق التى يحسن بها نبرات صوته ، بحيث يجعله يناسب اللحن والايقاع اذا ما غنى .

قال المقري فى هذا :

« وكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه، امره بالقعود على الوسائد المدورة المعروفة بالمسورة ، وان يشد صوته جدا — اذا كان قوي الصوت — فان كان لينه ، امره ان يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج عن الفم . فان كان الص الاضراس ، لا يقدر ان يفتح فاه ، او كانت عادته زم اسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها فى فمه ليالي حتى ينفرج فكاه ، وهو رأي عالم بنبرات الاصوات ومخارجها ، وما يساعد على تهذيبها واظهارها بصورة جلية .

اخذ عن زرياب اولاده وكثير من اهل الاندلس رجالا ونساء، ونشروا فنه فى طول الاندلس وعرضها، فكانوا دعاة نهضة فنية ، طغت على الاندلس ، وتعدتها الى شمال افريقية ، وطبعتها بطابع الالحان التى ابدعها زرياب . بقيت هذه النهضة الى القرن الثامن للهجرة ، وهي تسير على القواعد التى وضعها زرياب والالحان التى ابتكرها وابدع فيها ، مما جعل ابن خلدون يقول عن تأثير غنائه :

فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ، ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على انصارها ، وبها الآن صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها .

ومن اخذ عنه وبرز فى الغناء اولاده العشرة (1):

1 — عبيد الله كان خليفة والده ، واعلا اخوته فى الغناء .

2 — عبد الرحمان : وهذا يلي عبيد الله فى الغناء ، وكان يشوب علمه تيه وزهو وكثرة العجب بفنائه ، وهذا مما سبب له مشاكل كثيرة فى مجالس الغناء التى كان يقيمها (2) ، ويذكر ابن خلدون ان عبد الرحمن هذا خلف والده فى هذه الصناعة ، ولربما عمر اكثر من عبيد الله ، فكان المرجع اليه فى الغناء .

3 — اما محمد بن زرياب فكان مؤنثا .

4 — واما القاسم بن زرياب : فكان احذقهم غناء مع تجويده .

5 — واما احمد بن زرياب : فكان قد غلب عليه الشعر .

---

(1) كان لزرياب اربعة اولاد يوم دخل الاندلس ، وهم : عبد الرحمن وجعفر ، وعبيد الله ويحيى . وولد له فى الاندلس اربعة بنين : محمد وقاسم واحمد وحسن ، وبنتان : علية وحمدونة .

(2) نفح الطيب : 4 : 125 .

6 ـ واما حمدونة بنت زرياب: فكانت متقدمة فى اهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، تزوجها الوزير هشام بن عبد العزيز .

7 ـ اما علية بنت زرياب : فطال عمرها بعد اختها حمدونة ، ولم يبق من اهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس اليها ، وحملوا عنها ، فكانت مرجعا للمعهد الزريابي ، يقصدها اهل الفن ، ويأخذون عنها .

ومن جواريه :

1 ـ مصابيح : جارية الكاتب ابي حفص عمر بن قلهيل ، وهي ممن اخذ عن زرياب ، وصارت غاية فى الاحسان والنبل وطيب الصوت .

مر ابن عبد ربه (3) فسمع غناءها ، واشتاق ان يدخل اليها فأبى مولاها . فمال ابن عبد ربه الى مسجد قريب من المكان ، واخذ لوحا من صبي وكتب هذه الابيات وارسلها الى مولاها :

يا من يضن بصوت الطائر الفرد
ما كنت احسب هذا الضن من احد

لو ان اسماع اهل الارض قاطبة
اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلا تضن على سمعي مقلده
صوتا يجول مجال الروح فى الجسد

لو كان زرياب حيا ثم اسمعه
لذاب من حسد، او مات من كمد

اما النبيذ فاني لست اشربه
ولست آتيك الا كسرتي بيدي

فلما قراها مولاها ، خرج اليه حافيا ، وادخله مجلسه ، وتمتع ابن عبد ربه من سماعها .

2 ـ متعة : جارية زرياب ، اعتنى فى تاديبها وتعليمها احسن اغانيه ، وشبت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدي الامير عبد الرحمن بن الحكم ، تغنيه مرة، وتسقيه اخرى، وكان الامير معجبا بجمالها وبصوتها ، فلما فطنت لاعجابه بها ، ابدت له دلائل الرغبة ، ولكنه ابى الا التستر ، فنظمت هذه الابيات وغنته بها :

يا من يغطي هواه
من ذا يغطي النهارا ؟

قد كنت املك قلبي
حتى علقت فطارا

يا ويلتاه اتراه
لي كان ، او مستعارا ؟

يا بابي قرشي
خلعت فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب امرها ، اهداها الى الامير عبد الرحمن ، وحظيت عنده .

3 ـ اما هنيدة وغزلان فقد تقدم الكلام عنهما .

ومما اجراه على العود فى الاندلس :

1) كانت اعواد القوم ذات اربعة اوتار ، فاضاف هو اليها وترا خامسا ، واتخذ الاوتار من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها انائة ورخاوة وقد تقدم الكلام عنها .

2 ـ كانت الاعواد ثقيلة الوزن ، تجهد الضارب، وربما عاقته عن تأدية الضرب كما يهوى ، فجعل زرياب عوده صغير الحجم ، خفيف الوزن ، جميل الشكل ، دقيق الصنع ، يستهوي النفس ، ويمثل جمال الالحان التى يضربها زرياب .

3) كانت مضارب العود من خشب ، ثقيلة على الانامل ، تؤثر فى الاوتار عند الضرب ، وربما قطعتها او افسدتها فى ايام معدودة . فعدل عنها زرياب بأن اتخذ المضرب من قوادم النسر : خفيف على الانامل ، رفيق بالاوتار ، ليس فى اليد ، مرن الاستعمال ، يحدث اهتزازات فى الاوتار ، ما لم تحدثه المضارب الخشبية الصلبة .

ومما سنه فى الغناء : ان كل من افتتح الغناء يبدأ بالنشيد اول شدوه باي نقر كان، ويأتي اثره بالبسيط، يختم بالمحركات والاهزاج تبعا لمراسيم زرياب .

ذكر المؤرخون ان اسلم بن احمد بن سعيد الف كتابا فى الاصوات التى وضعها

(3) صاحب « العقد الفريد » .

زرياب ، ومما يؤسف له ، اننا لم نقف على ذكر لهذا السفر النفيس ، الذى جمع روائع الفن وما ابتكره زرياب من اصوات جميلة ، وما نظمه من شعر يغنى به . فان هذا الكتاب كان يطلعنا على الحان رائعة ، واصوات مبتكرة ، ابدعتها قريحة زرياب ـ طمست مع افول شمس العرب فى الاندلس ، ولم يبق منها ، الا صبابة تذكرنا بما كان من التأثير القوي فى الغناء الاندلسي الذى قرر قواعده ، معلم الناس الفن والمروءة (زرياب) .

زرياب من نوادر عصره ، جمع ـ الى تفوقه فى الغناء ـ علوما وفنونا وآدابا . ذكروا عنه انه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها ، وهذا ما ساعده على حل كتاب الموسيقى لبطليموس ، لان هذا العدد هو غاية ما ذكره بطليموس ـ واضع هذه العلوم ومؤلفها ـ فى كتابه .

كان زرياب شاعرا ، ويمتاز شعره بالرقة والعذوبة ، كيف لا يكون شعره رائقا ، وقد صدر عن شيخ المغنين صاحب الاصوات المبتكرة البديعة ؛ والالحان التى لم يزل تأثيرها فى الشرق والغرب . ومن شعره :

علقتها ريحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره
لله ايام لنا سلفت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيم غير ان كانت قصيره

وقوله ايضا :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني
حمام تداعت فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كل ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

كان عالما بالنجوم واحكامها ، يعرف الاقاليم السبعة وما فيها من عوارض طبيعية ، ومدن وعمران، وما فى هذه من سكان وخيرات ، ويعرف طبائع وميول سكانها ، وما تشتهر به كل مدينة ، فاذا تكلم بهذا تكلم عن علم ومعرفة .

لم يقتصر تأثير زرياب على اهل الاندلس فى الغناء فقط ، بل كان له تأثير كبير على الحياة الاجتماعية فيها : الطعام والازياء وتصفيف الشعر وابتكار عطور وادهان وغير ذلك .

ففى الطعام وما يتبعه من لوازم :

1 ـ كان زرياب اول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم بالاسفراج ، ولم يكونوا يعرفونها قبله .

2 ـ وعلمهم زرياب طبخ النقايا ، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة ، محلى بالسنبوسق والكباب ، ويلي هذا عندهم لون التقلية المنسوبة اليه «زريابية».

3 ـ كان الاندلسيون يتخذون الآنية الرفيعة الثمن ، ويحلونها بالذهب والفضة ، ويتنافسون فى هذا ، فاتخذ زرياب آنيته من الزجاج الجميل ، فقلده الاندلسيون فى هذا .

4 ـ فضل زرياب استعمال سفر الاديم على الموائد الخشبية لتقديم الطعام ،لان الوضر يزول عن الاديم باقل مسحة ، فأخذ الاندلسيون بهذا .

5 ـ كان زرياب يفضل فرش الانطاع الاديمية الناعمة اللينة على ملاحف الكتان ، فانتشر هذا فى الاندلس .

واما تأثيره على الازياء فى الاندلس : فانه راى ان يلبس كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به . فيكون ابتداء الناس بلباس البياض . ثم يلبسون الملون من يوم مهرجان اهل البلد المسمى عندهم « بالعنصرة » الكائن فى ست بقين من شهر يونيو (حزيران) ، الى اواخر شهر اكتوبر (تشرين الاول). وان يلبسوا بقية السنة الثياب الملونة .

ورأى ان يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم « الربيع » من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التى لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البياض .

وكذا راى ان يلبسوا فى آخر الصيف وعند اول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ، ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات ، الى ان يقوى البرد ، فينتقلون الى اثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا الى صنوف الفراء .

واما تاثيره على تصفيف الشعر : دخل الاندلس وجميع من فيها ــ من رجل او امراة ــ يرسل جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين ، فلما راوا تحذيفه هو وولده ونساءه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى أصداغهم ــ هوت اليه انفسهم ، فاستحسنوه وقلدوه .

وابتكر ادهانا ومعاجين لطيفة وروائح عطرية تزيد من جما لالبشرة وتكسبها رونقا وبهاء .

كان ملوك الاندلس والمترفون يستعملون ذرور الورد وزهور الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد لطرد الصنان والروائح الكريهة ، فلا تسلم ثيابهم من وضر . فدلهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها ، فجربوه وحمدوه على ذلك .

هذا تاثير زرياب على اهل الاندلس ، فقد كان عاملا قويا فى تهذيب اغانيهم وتنسيق ثيابهم ، وتهذيب طعامهم وآنيتهم وآدابهم الاجتماعية ، فهو قدوة القوم فى كل ما يصدر عنه . وعلى هذا فان اهل الاندلس احلوا زرياب بالمحل اللائق به، وبخدماته الجليلة التى سنها لهم . فقد حظي فتى اسحاق الذى ترك بغداد مكرها من الغنى والترف والعزة ، ما جعله مضرب المثل فى الاندلس ، ويتعداها الى شمال افريقية ، ويتجاوزها الى بلاد الشرق . ومن ذلك ما رواه الصابي فى كتابه الهفوات النادرة قال : (ص : 385 ــ 386)

حدث علوية المغني قال: كنت مع المأمون لما خرج الى الشام ، فدخلنا الى دمشق ، وطفنا فيها ، وجعل يطوف على قصور بني امية ويتتبع آثارهم ، فدخل صحنا من صحونها ، فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله ، وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها و ... واقبل المأمون علي فقال : غنني ونشطني ، فكأن الله عز وجل انساني جميع ما احفظه الا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو امية لم
ينطق رجال اراهم نطقوا

فنظر الي مغضبا وقال : عليك لعنة الله وعلى بني امية ، ويلك قلت لك سرني ام سؤني ، الم يكن لك وقت تمدح فيه بني امية الا هذا الوقت ؟

فتجلدت عليه ، وعلمت اني قد اخطأت ، فقلت: اتلومني على ان اذكر بني امية ، هذا مولاكم زرياب عندهم يركب فى مائتي غلام مملوك له ، ويملك ثلاثمائة الف دينار وهبوها له ، سوى الضياع والخيل والرقيق وانا عندكم اموت جوعا .

هذا هو زرياب الذى ترك بغداد مكرها ، وعاش فى الاندلس مترفا مكرما ، وصار مضرب المثل فى الشرق والغرب .

دليل جديد على عروبة الأرقام المستعملة في المغرب العربي

أبو فارس

يوجد في المكتبة العامة بالرباط مخطوط تحت عنوان : « تلقيح الافكار في العمل برسم الغبار » (رقم ك 222) من تاليف ابي محمد عبد الله (او عبد الرحمن بن حجاج (1) المعروف بابن الياسمين والذي ولد بفاس أواسط القرن السادس وهو بربري من بني حجاج بقلعة فندلاوة ، اخذ العلوم الرياضية عن شيخه محمد بن قاسم وقد قال ابن الأبار في التكملة : « وله ارجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية في سنة 587 » (ص 531) وكان احد خدام المنصور وولده الناصر كما في « الذخيرة السنية » وقد وجد ذبيحا بمراكش سنة 600 او اوائل 601 هـ ، وتوجد نسخ من ارجوزته في الجبر والمقابلة بخزائن باريز وبرلين واكسفورد والاسكوريال والقاهرة ، ومن شراح الارجوزة حسب بروكلمان ابن الهائم المتوفى سنة 815 هـ (وهو مخطوط باكسفورد والقاهره) والقلصادي وهو « تحفة الناسمين في شرح ارجوزة ابن الياسمين » ، (مخطوط بخزانة مكتبة الهند بلندن والخزانة العامة بالرباط) وسبط المارديني المتوفى سنة 900 هـ ويسمى « اللمعة المارديئية في شرح الياسمينيه » (مخطوط ببرلين والقاهرة واسطمبول) وله ارجوزة في اعمال الجذور توجد بخزانة الاسكوريال (راجع بحث الاستاذ محمد الفاسي مجلة « رسالة المغرب » سنة 1942 السنة الاولى عدد 1) وممن شرح الارجوزة سعيد العقباني التلمساني الملقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج ص 106) .

وكتاب تلقيح الافكار هذا يعتبر اقدم وثيقة تحدثت عن اعداد الغبار واكدت انها مغربية اي عربية الاصل .

وننشر صفحتين مصورتين رقم 8 — 9 من هذا الكتاب اولهما : « واعلم ان الرسوم ...

(1) وقيل اسمه عبد الله بن محمد بن حجاج (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 91 (مخطوط والتكملة ص 531 والجذوة ص 237 .

التي وضعت للعدد تسعة اشكال يتركب عليها جميع العدد
وهي التي تسما اشكال الغبار وهي هذه ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ و
وقد تكون ايضا هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ولكن الناس
عندنا على الوضع الاول ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها
او عكسها لجاز ووجه العمل على حاله لا يتبدل وقد صنعها
قوم من جواهر الارض مثل الحديد والنحاس من كل شي منها
اعداد كثيرة ويضرب بها ما شا من غير نقش ولا محو واما
اهل الهند فانهم يتخذون لوحا اسود يمدون عليه الغبار وينقشون
فيه ما شاوا ولذلك تسما حساب الغبار وعلى الحقيقة ليس
الا المداد والمحو واعلم ان هذه الحروف ليست بداله على
الاحاد وحدها بل هي داله على العشرات والمئين والالاف
وعلى ساير المراتب المذكورة فما كان منها في بيت الاحاد
فهو دال على الاحاد وما كان منها في المرتبة الثانية التي هي منزلة
العشرات فهو دال ايضا على العشرات قليلها وكثيرها ان كان
واحد فهو عشرة وان كان اثنان فذلك عشرون وكذلك الى التسعين
وكذلك ما كان في البيت الثالث التي هي منزلة المئين وبيتها
فهو ايضا دال على المئين وكذلك الالاف وعشراتها ومئيها
وتكرارها وساير المراتب فان قيل لك كيف صورة خمسة
عشر بهذه الاشكال فتقول احاد فتجعل خمسة وتقول عشرة فتجعل
في المرتبة الثانية منزلة العشرات علامة واحدا وهي عشرة واحدة
على هذه الصورة ١٥ ولو كانت عشرين لجعلت اثنين لان

لان العشرات في بيتها بمنزلة الاحاد والمئين كذلك وكذلك
جميع مراتب الاعداد الى ما لا نهاية له فان قيل لك كيف
تنزل العشرين فقد ذكرنا ان العشرين اثنين في بيت العشرات
لكن ان جعلت اثنين لم يعرف انها عشرات اذ ليس معها عدد
في بيت الاحاد منها يدلنا على ان ما بعد عشرات فتجعل اثنين
وقبلها صفرا فتكون الاثنان في المنزلة الثانية بيت العشرات
لان الصفر ليس بعدد وانما يدلك على ما بعده اذ كانت المنزلة فارغة
ولا يكون بعد منتهى منازل وصورة المسئلة ه ي وان قيل لك
كيف صورة خمسة وستين ومائتين فقس على ما تقدم يكن هكذا
ع ي ه وان قال ستة وثلاثة الاف تكن هكذا ه ه ه ح
وصورة عشرة هكذا ه ا وصورة احد عشر هكذا ا ا فقس
بهذا على جميع ما يرد عليك من العدد الى ما لا نهاية له فقد
يكفي منه اليسير لانه بين لا يخفى بغير مثال ومن هنا ناتي على
ما شرطناه ان شاء الله تعالى

الباب الاول

في العدد الصحيح وما يتعلق به وينقسم الى
خمسة فصول

الفصل الاول في الضرب اعلم ان ضرب الاعداد بعضها
في بعض هو ان تضعف احد العددين بقدر ما في العدد
الاخر من الاحاد واذا كان معناه هذا فما ضرب في الواحد
او ضرب الواحد فيه لا يتغير اعلم انك اذا ضربت عددا

الاستعراب في لينغراد

للأستاذ فيكتور بيلاييف (لينغراد)

تلقينا من الاستاذ فيكتور بيلاييف مدرس العربية في جامعة لينغراد المقال التالي يشرح فيه بطريقة عفوية مبسطة عمل الجامعة والمختصين في حقل اللغة العربية فصيحها وعاميتها .

في لينغراد مركزان للبحث في ميدان الاستشراق وخاصة في ميدان الاستعراب ، هما معهد الاستشراق لاكاديميا العلوم ، والجامعة ، غرفة الاستعراب باسم المرحوم عضو الاكاديميا اغناطيوس كراتشكوفسكي يشتغل بالبحث عن مشكلات تاريخ الآداب العربية والتاريخ وتاريخ الثقافة العربية واللغة العربية اليمنية القديمة ولهجاتها المعاصرة . كل اعضاء هذه الغرفة من خريجي جامعتنا اعني القسم العربي للكلية الشرقية بهذه الجامعة . كان الاستاذ ا. كراتشكوفسكي رئيسا لتلك الغرفة وللقسم او الكرسي العربي بالجامعة كذلك وكان يدير الامور الاستعرابية في لينغراد ، بل في كل الاتحاد السوفياتي ، كما كان ذا نفوذ مسموع الكلمة وكان مشهورا لا في بلادنا وحدها بل في كل العالم بين العلماء والادباء في الشرق والغرب .

توفي الاستاذ عام 1951 رحمه الله . وكان اسس في بلادنا بعض فروع الاستعراب ، من البحث والتدريس ، التي لم تكن قبله في الاكاديميا ولا في الجامعة وهي البحث والدرس عن تاريخ الادب العربي الحديث (في القرون 18 – 19 – 20) وعن اللهجات العربية الحديثة المعاصرة والقديمة ، في القرون الوسطى معتمدا على مؤلفات آداب اللغة العربية وبعض فروع العلوم الفيلولوجية مثل علم البلاغة والبديع والبيان وتاريخها . وبعد وفاته تأصل هذا البحث والتدريس في الاتحاد السوفياتي وتطور كثيرا ، ونشرت كتب ومقالات لعلماء عندنا في بلادنا وفي الخارج .

والآن يدرس في جامعتنا ويدرس اللهجات العربية الحديثة الاستاذ فنيكوف . وهو الذي بحث اللهجات العربية في آسيا الوسطى بالقرب من مدينة بخارا وفي منطقة وادي قاشقا دريا في اوزبكستان . وهو يدرس بعض اللهجات ، مثل اللهجة السورية واللهجة المصرية ، نظريا نحويا . ويدرس نظاما نحويا للهجات العربية كلها . وقد نشر عن قريب قاموس اللهجة العربية البخارية (القاموس العربي – الروسي) ونشر بعض النصوص المسجلة من تلك اللهجة .

الاستاذ بيلاييف يبحث الآن بعض المؤلفات الأدبية القديمة ليستخرج منها كلمات وعبارات ولغات ومواد نحوية من طبيعة اللهجات بغرض انشاء نبذة نحوية لتلك الكتب ، مثل الف ليلة وليلة او رحلة

مكاريوس بطريرك انطاكية لابنه بولص الحلبـــي الخ . وتلك الكتب مشربة باللكلمات والعبارات العامية .

يبحث احد تلاميذنا فى المعهد الشرقي يعقوب غرونتفست عن الكتابات، المنقوشة باللغة الســبئيــة المكتوبة بالخط المسند والمنقولـــة الى الاتحـــاد السوفياتي فى السنة الماضية وهو الذي دافع عــن الاطروحة التي موضـوعها « النظام النحوي » من لغــة تلك الكتابات مقارنة باللهجة العربية الجنوبية المعاصرة مثل الســقطري والمهري والحضرمي الخ .

ويبحث تلميذنا الكساندر بابووكيـــن قواعـــد الافعال فى اللهجات العربية الشرقية والمغربية . انما هو فى ابتداء بحثه ونحن نتمنى له التوفيق وننتظر من زرعه حصيلة طيبة .

الاستشراق في رومانيا

نشرت مجلة « الاقلام » العراقية الزاهرة ، فى عددها السادس من السنة الثامنة 1972 ، مقالا حول « دراسة اللغة العربية فى رومانيا » وافاها به الاستاذ نيقولا دوبريشان من بوخاريست ، وقد أشار صاحب المقال الى أنه قد مر حتى الآن خمس عشرة سنة منذ تأسيس قسم اللغة العربية والاداب العربي ضمن مجموعة اللغات الشرقية التي تدرس بجامعة بوخارست ، وقد كون هذا المعهد خلال هذه الفترة عددا كبيرا من الاختصاصيين الذين يعلمون اللغة العربية والذين يعملون فى رومانيا على دعم التعاون والتطور المستمر للعلاقات الرومانية العربية فى مختلف الميادين » ومن المميزات التي تنفرد بها هذه الجامعة فى تدريسها اللغة العربية كونها « الى جانب اعداد الطلبة اعدادا نظريا عميقا يكمن فى دراسة قواعد اللغة العربية والادب العربي وتاريخ وحضارة العرب وعلم الاسلام وعلم اللهجات وغيرها من العلوم النظرية يتلقى الطلبة كذلك اثناء سنوات الدراسة اعدادا عمليا بمعنى التعرف على احدى اللهجات الدارجة واستخدامها عمليا » .

كما ان الاعداد المحصول عليه من جامعة بوخاريست يتم اكماله عند الضرورة، بفترات للتخصص فى البلدان العربية والاشتراك فى دراسات دورية قصيرة الأمد تنظمها بعض البلاد العربية من اجل المستعربين » .

وحينما يشير الكاتب الى النشاط الذي تضطلع به هيئة التدريس بهذه الجامعة يقول : « انها تقوم علاوة على النشاط التعليمي ، بنشاط واسع آخر فى المجالين العلمي والثقافي يتجسم فى اعداد الكتب اللازمة للتدريس ونشر أبحاث علمية فى ميادين اللغة والأدب العربي والعلاقات الثقافية الرومانية العربية ونشر تراجم اهم المؤلفات العربية الكلاسيكية والحديثة عن الأدب العربي وغيرها كما يقوم اعضاء هيئة التدريس بنشر مقالات وتراجم عن الشعر العربي فى المجلات الأدبية الرومانية بصورة مستمرة حيث يعرفون بذلك القراء الرومانيين قيم الحضارة والأدب العربي ، وحيث يشاركون فى تعارف متبادل أحسن وفى التقارب بين الأمتين الصديقتين الرومانية والعربية »

ويضيف صاحب المقال قائلا : « كما ان هيئة التدريس تشترك كذلك فى التعاون مع الاختصاصيين المستشرقين الآخرين برومانيا فى نشاط جمعية المستشرقين التي أسست مؤخرا والتي تنظم دوريا ندوات علمية تقدم فيها بحوث قيمة فى علم الاستشراق تنشر فى مجلة الجمعية وفى مجلة الجامعة وفى مجلات علمية أخرى وفى مجلدات خاصة » .

ويذكر الكاتب انه « بينما كان يشتغل فى هذا القسم أستاذ واحد فقط بعد افتتاحه فى عام 1957 ، وصل عدد الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فى هذا القسم الى خمسة أساتذة ومن بينهم أستاذة حصلت على درجة الدكتوراه فى علم اللغة من جامعة بوخارست

عام 1971 ، بأطروحة تناولت بالبحث موضوعا فى علم اللغة له علاقة باللغة العربية ، كما يعد — فى الوقت الراهن ، أستاذان آخران للقسم أطروحتين للدكتوراه كذلك أحدهما عن موضوع : **طرق تكوين المصطلحات السياسية والاجتماعية فى اللغة العربية المعاصرة ، والثاني عن رحالة عربي فى البلدان الرومانية فى القرن السابع عشر .**

وحينما يشير الى تاريخ اهتمام الرومانيين بالاستشراق يقول : « وعلى الرغم من أن دراسة نظامية اللغة العربية بدأت فى رومانية بعد تأسيس قسم اللغة العربية فى نطاق جامعة بوخارست ، كانت توجد فى رومانيا اهتمامات قديمة بعلم الاستعراب وبالماضي الغني للعلاقات الرومانية العربية ، ونكتفي بالاشارة هنا الى أسمى اثنين من المستشرقين الرومانيين المشهورين : أحدهما واسمه ديميتري كانتمير ، عاش فى بداية القرن الثامن عشر وهو علامة عظيم تمت ترجمة مؤلف له فى اللغة العربية فى عام 1705 تحت عنوان « صلاح الحكيم وفساد العالم الدميم » والآخر هو تيموتي تشيباريو وقد عاش فى منتصف القرن التاسع عشر وامتلك مجموعة غنية من الكتب والمخطوطات العربية اصبحت الآن رصيدا ثمينا من الكتب العربية التي تمتلكها مكتبة فرع اكاديمية العلوم الرومانية فى مدينة « طلوج » .

ويشير صاحب المقال كذلك الى **ان الاقبال يزداد على تعلم اللغة العربية ببلاده نتيجة للتوسع المستمر للعلاقات الرومانية العربية وزيادة الرغبة فى التعرف احسن فاحسن على حضارة الامة العربية ،** وتدرس اللغة العربية — عدا فى الجامعة الشعبية ببوخارست ، تدرس كذلك فى الجامعة الشعبية بمدينة « تيميشوارا » كما تدرس فى قسم اللغة العربية بجامعة بوخارست المشار اليه آنفا ويحضر هذه الدروس هواة تتراوح اعمارهم بين 15 و 65 سنة » ، وينوه الا انه **ابتداء من سنة 1971 بدا تدريس اللغة العربية بصورة تجريبية لتلاميذ الابتدائية فى مدرسة لمدة عشر سنوات ذات التدريس بلغات اجنبية** ويتنبأ الكاتب فى ذيل مقاله الى انه سوف تحقق انجازات ضخمة فى ميدان الاستعراب ببلاده فى المستقبل القريب ، كما يشير الى انه كتب هذه العجالة بمناسبة مرور خمس عشرة سنة على تاسيس قسم اللغة العربية والادب العربي بجامعة بوخارست .

الوشائج العريقة بين الخليج العربي والمغرب الأقصى *

عبد العزيز بن عبد الله
الأستاذ في جامعة الرباط ودار الحديث الحسنية

الخليج عريق في العروبة وقد استعمل الجغرافي اليوناني سترابون (Strabon) المتوفى بين 21 و 25 ميلادية كلمة الخليج العربي في وصفه للحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب ويرجع اطلاق المؤرخين اسم الخليج (1) الفارسي الى القائد اليوناني نيركس بعدما عاد من الهند مبعوثا من سيده الاسكندر الاكبر حيث لم يمر الا من الساحل الشرقي فظن ان المنطقة كلها فارسية وتتجلى عروبة المنطقة أيضا منذ اعرق (2) العصور في الاسم الذي تحمله مقاطعة « خوزستان » الايرانية التي كانت تسمى من قبل الفرس الى السنوات الاخيرة « عربستان » اي « بلاد العرب » ولا تزال تقطنها الى الآن قبائل عربية مختلفة كبني تميم الذين ينتسب اليهم الخليفة الاول أبو بكر الصديق رضي الله عنه « وعربستان » هذه هي التي كانت تسمى « الاهواز » والاهواز كما جاء في معجم البلدان جمع هوز واصله حوز لانه ليس في كلام الفرس حاء حيث يقولون مهمد لمحمد ولذلك نرى ان كلمة الاهواز اسم عربي اطلق على هذا الاقليم في العصر الاسلامي وتسمى بهذا الاسم في المغرب الاقصى ناحية مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين ولعل لهذه التسمية صلة بما يحكيه بعض المؤرخين حول اسباب اطلاق اسم سوس على اقصى جنوب المغرب في الاطلس الصغير فيروي المؤرخ الروماني سالوست (Salluste) المتوفى في عام 35 قبل الميلاد (في الكتاب الذي صنفه حول « حرب يوغورتا » ملك نوميديا من اسر امراء البربر والمولود عام 154 قبل الميلاد) ان الفرس الذين حاولوا الاغارة على شبه الجزيرة الايبيرية (اي اسبانيا والبرتغال) في عهد هيراكلس (Héraclés) (وهو هيركول اللاتيني الذي سميت به اساطين هرقل اي مضيق جبل طارق شمالي المغرب الاقصى) قد تحولت اشرعة مراكبهم بشدة الريح الى المحيط الاطلنطيقي فوصلوا

(x) هذا نص محاضرة القاها الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله في ابى ظبي يوم رابع يناير 1973 .

(1) ودرج على ذلك المؤرخ الروماني بلين (Pline) المتوفى عام 79 م حيث سمى الخليج باسمه الصحيح وهو الخليج العربي .

(2) وقد ندد الرائد الدنماركي كارستن نيبور عام 1762 م (1176 هـ) بهذا الزعم الذي ردده جغرافيون صوروا جزءا من بلاد العرب كانه خاضع ـ كما يقول نيبور ـ لحكم ملوك الفرس كما أبرز هذه الحقيقة الرحالة الانجليزي هورو دريك اوين في القرن العشرين رغم تواطؤ الكثير من الجغرافيين المعاصرين على الغض من عروبة الخليج .

الى جنوب المغرب حيث اتصلو بالجيتول (Gétules) (وهم اهل جزولة الحالية على ما يظهـــر) فتصاهروا معهم وسميت سوس (وكذلك كل من مدينتي سوسة التونسية والليبية وهما متشابهان ونهر سوس قرب قرطبة واشبيلية بالاندلس وسوسية كـــورة بالاردن (معجم البلدان ج 5 ص 173) وسوسة مدينة بالصين (صبح الاعشي ج 4 ص 483) اقتبسنا من كلمـــة سوسانة (Susiane) (او ارض عيلام (Elam) الواقعة بمنطقة الاهواز على ان الفرس قد اشتهـــروا قديما بالنوميديين ومعناه الرمل بلغتهم وقد أطلق هذا الاسم على اهل نوميديا وهي اقليم افريقي يقع بيـــن منطقة قرطاج التي اسسها الفينيقيـــون كعاصمـــة لمستعمرتهم عام 814 ق. م. وبلاد موريطانيا وقـــد خضعت هذه المنطقة بعد ثورة يوغورطا الى الحكـــم الروماني وسنرى كيف ان هذه العناصر تشكل حلقات فى الشبكة الواسعة التي حبكها الفينيقيون منذ اعرق العصور بين الشمال الافريقي والخليج العربي ، نعم كان للعرب الكنعانيين اي الفينيقيين جولات فى الخليج العربي فهم الذين اسسوا مدينـــة تيـــر (Tyr) (صور الحالية فى لبنان) فى الالـــف الثالثة قبـــل الميلاد ، وكانت عاصمة تشرف على القوافل التـــي تنقل الى الغرب ما ينتجه الشرق الأسيوي عبر بحر القلزم والفينيقيون هم الذين اسسوا مدينة قرطـــاج (واسمها محرف عن قرية حداش اي القرية الحديثة لانها اسست بعد كل من مدينة أوتيك (Utique) التونسية ومدينة ليكس (Lix) المغربية حوالي (110 ق. م.) وقد سقطت مدينة تير تحت الحكـــم الروماني عام 64 ق. م. واشرف عليها وعلى قصـــر فرعون اي وليلي القديمة (Volubilis) بالمغرب الاقصى الامبراطور الرومانـــي سبتيـــم سيفيـــر (Septième sévère) بين سنتي 193 و 211 ق. م

ويرى بعض المؤرخين ان الفنيقيين كانوا قـــد استقروا فترة من الزمن فى شواطيء الخليج قبل ان ينتقلوا الى الساحل السوري وانهم سموا مدينة « صور» على شاطيء البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهـــم الاولى على شاطيء الخليج ولعل الآثار التي تم الكشف عنها فى المنطقتين تضفي على هذه الرواية سمة من الحقيقة لا سيما وان مؤرخين محدثين قد اكدوا ذلك ومن جملتهم الاستاذ جان جاك بيربي (J.J. Berreby) فى كتابه « الخليج الفارسي (Le Golfe Persique) والاستاذ امين الريحاني الذي ابرز بالاضافة الى ما ذكر تشابك الدوحة العربية بالدوحة الفينيقية فى كتابـــه « ملوك العرب » .

وبذلك يكون الفنيقيون قد هاجروا من الخليج الى البحر المتوسط منذ خمسة آلاف سنة كما يقول المؤرخ رولنســـون .

وقد وسع الفينيقيون شبكة مستعمراتهم على سواحل المتوسط واسسوا ليكس واوتيك ومالقـــة وقادس (بالاندلس) وهبو (عنابة وبنزرت) ثم تجاوزوا حسب سترابون اساطين هرقل وتأكد ذلك بعد قيام خبراء بحفريات على طول سواحل المحيط الاطلنطيقي مما قد يؤكد النظرية القائلة بأن هانون قد وصل فى رحلته فى القرن الخامس قبل الميـــلاد الى درعـــة والساقية الحمراء وربما غينيا فى قلب القارة الافريقية وقد اصبحت اللغة البونيقية (Langue punique) المستمدة من الكنعانية العربية مع تطعيمات محليـــة لغة اشبه بعامية افريقيا الشمالية فى العصر الحاضر نشرنا بحثا عنها فى مجلة « اللسان العربي » (التـــي اتشرف بادارتها ورياسة تحريرها وهي لسان « المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطـــن العربـــي ») .

وخلاصة ما فى هذا البحث انه عثر فى البرازيل على حجارة مكتوبة بالعربية اليونانية تحمل تاريخ 125 قبل الميلاد نتج عن مقارنتها باللهجة الدارجة اليوم فى المغرب العربي ان هذه اللهجات ليست سوى امتداد اصيل للغة بني كنعان العربية التي استعملت قبـــل الاسلام فى كل من الخليج العربي قبل البعثة المحمدية بأزيد من الف عام ، وقد اعتبر الرحالة المغربي الكبير الحسن بن محمد الوزاني المعروف عند الغربين بليون الافريقي (Léon l'Africain) ان الفينيقيين عنصر هام فى سكان افريقيا الاقدمين حيث انتقل فوج منهم صحبة مصريين الى افريقيا الشمالية عام 1215 ق. م عندما اجلاهم الاسرائيليون عن فلسطين ثم تتابعـــت الجاليات ايام نبي الله داود عليه السلام عام 1055ق.م والواقع ان العرب كانوا يمـــلأون ـ باضافـــة الى الشمال الافريقي ـ هضبات وبطاح جنوب افريقيـــا حيث كشف الدكتور استانلي تيبور على مقربة من نهر زمبيز فى مقاطعة روديسيا آثارا منقوشة مع رســـوم مكتوبة استدل بها على ان العرب استثمروا مناجـــم الذهب التي كان قد استثمرها قبلهم اسلافهم عـــرب اليمن وقد لاحظ صاحب قصة الحضارة (ج2 ص 43) ان الحضارة ظهرت فى بلاد اليمن وبـــلاد المغـــرب القديمة وانتشرت فى صورة مثلث الى شومر وبابل واشور ومصر ويعضد هذه النظرية ما قيل من أبوة

اليمن (بلد العرب البائدة) للشعب العربي في سائر اقطاره وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط حيث كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة مما سهل استيعاب الهجرة .

وقد تحدث ابن خلدون في تاريخه (ج 1 ص 99 طبعة بيروت) عن عروبة جبال الاطلس المغربية فأشار الى ما أكده المؤرخون والنسابون العرب امثال الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي من أن صنهاجة (سكان الاطلس الاوسط) ومصمودة (سكان الاطلس الكبير) وكتامة (بشمال وشرقي المغرب الاقصى) عرب يمنيون من سلالة حمير فيكون البرابرة ـ حسب هذه الرواية ـ أعرق في العروبة من ربيعة ومضر لانتسابهم الى افريقش بن قيس بن صيفي الحميري وقد تحدث عن هذه النظرية القلقشندي في صبح الاعشى (ج 1 ص 321) فلاحظ أن افريقش هذا هو الذي نقل البربر من سواحل الشام ـ مركز الفينيقيين ومهاجري الخليج العربي ـ الى المغرب ملاحظا أن اكثر الاقوال جانحة الى عروبة البربر خلافا لابن حزم (في جمهرته) وتبعه ابن خلدون (التاريخ ج 6 ص 96) الذي زعم انه لم يكن لحمير طريق الى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخي اليمن ويظهر أن ابن خلدون افضل الطريق القديمة التي كانت تصل اليمن عن طريق بحر القلزم (أي عيذاب وبور سودان الحالية) وصحراء السودان والتشاد بالصحراء المغربية الممتدة من تنبكتو الى النيجر الى مراكش تلك الطريق التي اكد الحسن الوزاني في وصف افريقيا (ج 1 ص 14 و29) أنه رافق عام 918 هـ تجارا انتقلوا من المغرب الى السودان ثم مصر حيث دشنوا طريقا جديدة من الجنوب تصل الصحراء بمصر عن طريق التشاد وكانت الطريق العادية بواسطة فزان وطرابلس قد هجرت منذ قرن نظرا لعبث عرب الساحل وكذلك البحر بسبب القرصان المسيحيين وقد لاحظ المؤرخ الالماني (هانز (Hanz Helfritz) في كتاب له حول اليمن (تعريب خيري حماد ص 134) التشابه الملحوظ بين الالحان في اغاني الجنوب العربي وبين الموسيقى البربرية التي تمكن كارل ولهام لخمان (1793 م ـ 1851 م) من تسجيلها فابرز وحدة الانشاد ، أضف الى ذلك وجود ابنية بالاطلس تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربي وتحمل نفس المظاهر المعمارية ، وقد شرح هورن بوستل النمسوي (1877 ـ 1935 م) انتماء البربر واليمنيين الى أصل واحد ينتسب الى آسيا الشرقية .

وسنرى كيف أن سجلماسة عاصمة الصحراء كانت منذ القرن الثالث الهجري مركزا للقوافل التجارية بين بصرة المغرب وبصرة الخليج وليس ببدع ان يوغل في الصحراء اهل هذه الصحراء لا سيما وان هؤلاء كان دابهم في جميع الاعصار الفرار من رطوبة السواحل والتوغل في الرمال سواء كانت في النيجر أم في السودان أم في الثلث الخالي من جنوب غرب آسيا وقد أسس العرب مراكز تجارية في غمار الصحاري كمحطات للقوافل المحملة بالبضائع المجلوبة من اقاصي البلاد وكانت التجارة آنذاك تمر حتما في الطرق البرية لأن العرب لم يكونوا قد استأنسوا بعد بالطرق الملاحية وقد ساعدت وحدة نظام الحياة القبلية في الصحراء على هذا الترابط .

ويعتبر القرن الثالث الهجري قمة نشاط الحركة التجارية برا وبحرا وفترة ذهبية في تاريخها فالى القرن الثالث الهجري يرجع تاريخ الكثير من رحلات الجغرافيين العرب حول العالم كابن وهب القرشي الذي رحل الى الصين عام 256 هـ وسليمان الصرافي الذي كتب رحلته الى الخليج العربي والخليج الصيني عام 237 هـ وسلام الترجمان الذي رحل الى الصين الشمالي أيام الخليفة الواثق بالله واليعقوبي صاحب البلدان وابن خرداذبة صاحب المسالك والممالك المتوفى عام 300 هـ أما في أوائل القرن الرابع فهنالك الحسن المهلبي الذي رحل الى السودان عام 375 هـ ومحمد التاريخي الاندلسي المتوفى عام 363 هـ وهو صاحب « كتاب وصف افريقية والمغرب » وأبو دلف الذي رحل الى الصين حوالي 331 هـ والاصطخري صاحب « الاقاليم » و « الممالك » الذي لقي ابن حوقل استغرق تجواله حول العالم ثلاثين سنة والمسعودي صاحب « مروج الذهب » و « معادن الجوهر » الذي فرغ منه عام 336 هـ وهو كما وصفه ابن خلكان امام المؤرخين ، والواقع أن طريق الوطن العربي الى الصين فتح منذ عام 31 هـ (651 م) بتتابع سفارات بلغت في ظرف 147 سنة ستا وثلاثين بعثة دبلوماسية عربية (مجلة بناء الصين عدد 3 ـ 1966) على أن الكلمة التي استعملها التجار العرب والرحالون الاوربيون في العصور الوسطى لتسمية بيكين (Pékin) هي لفظة خان باليك (Khan Balik) (دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 1024) وكانت الخطوط التجارية كلها سواء انبثقت من غرب أوربا او من الشمال الافريقي او من روسيا تؤدي الى ميناء الأبلة وميناء البصرة وقد أكد الرحالة بانيكار في كتابه

حول « آسيا والسيطرة الغربية » ان العرب سواء فى الشرق ام فى الغرب اصبحوا يتنافسون مع الشعوب الاخرى على تجارة الافاوية فكان للتجار مستودعات بالقاهرة والاسكندرية بل حتى بمدينة فاس فى المغرب الاقصى (ص 37 ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) اضف الى ذلك ان تجارة الرقيق المجلوب من افريقيا السمراء وحركة الحجيج كان لهما ضلع فى تعزيز هذه الحركة التجارية وقد بلغ من اهتمام المسئولين العرب بتأمين طرق المواصلات أن عزم عمرو بن العاص وبعده هارون الرشيد على شق ترعة السويس حتى تمتد الخطوط التجارية دون انقطاع من الاندلس والمغرب الى الصين وقد اشتهرت ثلاث مدن ملاحية فى الخليج العربي بنشاط غامر فى هذا الحقل التجاري فكانت سيراف تربط الخليج بالصين بينما كانت البصرة نقطة التقاء للسبل البحرية وطرق القوافل التجارية حيث بذت فى شهرتها ميناء الأبلة الذي ظل مع ذلك المركز التجاري الاوحد ما بين الخليج العربي والخط الملاحي لنهر دجلة الممتد الى البصرة وقد تعزز التبادل آنذاك بين الشرق والغرب بوحدة العملة حيث كان التجار يعتمدون العملة الذهبية وهي الدينار والفضية وهي الدرهم وقد بلغت مكانة سجلماسةمبلغا جعل الاندلسيين انفسهم يتعاملسون بالدنانير السجلماسية (البيان لابن عذارى ج 2 ص 344) نظرا لضرورة توحيد العملة بين المراكز التجارية فى طريق القوافل وقد وقع العثور عام 1951 فى الانقاض الاسلامية بقصر فرعون (Volubilis) على 231 درهما فضيا من العصر الاموي مع دينار ذهبي دمشقي وكلها دراهم شرقية من واسط ومرو واضطخر وجند يسابور ودمشق وحمدان وافريقيا .

واذا علمنا ان البصرة تقع على الطرف المباشر للصحراء فى جانب الارض المزروعة وبساتين النخيل فى منطقة شط العرب علمنا لماذا كانت محط انظار الحضريين والصحراويين من المغاربة حيث اسست بصرة المغرب بالقرب من مدينة القصر الكبير شمالي المغرب وظلت مركزا اقتصاديا هاما لصنع الكتان ومرحلة فى طريق القوافل الى أن هدمها ابو الفتوح عام 368 هـ (البيان لابن عذارى ج 1 ص 330) وقد حدثنا ناصر خسرو الذي زار مدينة البصرة الشرقية عام 1050 م عما وجده من عادات لدى التجار الذين كانوا يملكون كمبيالات أو سفتجات يحفظونها لدى تاجر عملة أو رجل بنك مقابل ايصال وكل المشتريات تدفع بالشيكات أو الحوالات ويقوم التاجر طوال اقامته فى المدينة بصرف كل دفعاته بالشيكات على البنوك ومثل هذه الحوالات كانت ايضا بسجلماسة حيث كانت التجارة مزدهرة مع السودان والبصرة حسب ابن حوقل الذي حدثنا (المسالك والممالك ص 70) عن العوائد التجارية بهذه المدينة (عاصمة الصحراء المؤسسة عام 140 هـ) فلاحظ انه « راى صكا فيه ذكر حق على رجل من اهل سجلماسة لرجل آخر من اهلها بأربعين الف دينار » كما رأى ذلك بخراسان والعراق (ولعله يعني البصرة) وكان التجار المسيحيون الواردون من الاندلس وتلمسان يمرون بسجلماسة الذي اكد ياقوت الحموي فى معجمه ان مصانع نسيجها بذت فى جودة الانتاج مصانع مصر كما لاحظ ابن خردادبة الجغرافي العربي فى القرن الثالث الهجري أن التجار الصقالبة كانوا يمرون فى وجهتم نحو لشرق عن طريق سوس الادنى اي طنجة ومنها الى افريقيا ومصر وتشمل مقاطعة سوس الادنى بالاضافة الى فاس مدينة البصرة المغربية بحيث يمكن القول بأن هذا المركز كان منطلقا للقوافل نحو البصرة الشرقية سواء عبر الصراء الجنوبية أم خلال بلاد الكنانة ولعله ليس من العبث ان تحمل مدن مغربية واندلسية على طول الطريق الغربي اسماء مدن أخرى تتلاحق فى الشق الشرقي لنفس الطريق فبالاضافة الى البصرة وسوس الاهواز وحمص (فى كل من فاس الجديد والاندلس) توجد فى قلب الاطلس مدينة القاهرة وفى قلب الريف اقليم فشتالة المعروف بالشام الصغيرة كما توجد فى الاندلس مدينة تدمير (Todmir)
Encyclopédie de l'Islam, IV, p. 848
المتساوقة فى اسمها مع تدمر السورية (Taomor Palmyre) التي كانت منذ العصر الروماني من ابرز المراكز التجارية فى هذه الشبكة وكانت اشهر المدن والموانىء فى الخليج آنذاك ابولو جوس اي الأبلة (Abolla) التي ينتمي اليها أبو عبد الله الابلى شيخ ابن خلدون وقد ظلت الأبلة المخرج الرئيسي على الخليج من اجل التجارة الفارسية فى النقطة التي تلتقي عندها الطرق العظيمة من فارس وجزيرة العرب على ضفتي دجلة وقد لفت ابن خرداذبة الانتباه الى المكانة الهامة التي احتلتها الأبلة فى التجارة بين الشرق والغرب حيث كان التجار اليهود يقلعون من فرنسا فى البحر العربي (أي المتوسط) ويتجهون نحو انطاكيا ومنها الى بغداد ثم الأبلة فالسند والهند والصين وقد ظلت هذه المدينة بارزة على المسرح العالمي مرتبطة بالبصرة فى النشاطات البحرية الخاصة بالخليج لعدة قرون واذا كانت مدينة البصرة

الحديثة قد امتصت الأبلة فان ذلك لم يتم الا بعد القرن التاسع الهجري وهنا يمكن ان نتساءل عن الدور الذي قام به الخوارج لدعم الروابط السياسية بين الخليج والمغرب منذ صدر الاسلام ، فالأزارقة قد ثاروا فى الاهواز والبصرة حيث استباحوا دماء واعراض المسلمين الخارجين عن نطاق فكرتهم ولكنهم ما لبثوا ان انهزموا لتطرفهم فخلفهم الصفريون القائلون بضرورة التعايش مع غير الخوارج وقد نفذ هؤلاء الصفرية فى المغرب الى قلوب البربر الذين شقوا الطاعة على الخليفة هشام واججوا نار الثورة عام 121 هـ باقليم طنجة وتسربت فلولهم الى الصحراء فاسست (عام 140 هـ) مدينة سجلماسة التي اصبحت حاضرة بني مدرار الى منتصف القرن الرابع الهجري وهو التاريخ الذي تهدمت فيه مدينة البصرة المغربية وانهار الحكم الخارجي وكذلك الشيعي فى المغرب بانهزام جوهر الصقلي الذي نقل عدته الى مصر حيث بنى القاهرة وليس من قبيل الصدفة ان يجعل الخوارج من البصرة موئلا لهم ومركزا ينافسون به الكوفة التي عدت قاعدة من قواعد الشيعة فى نفس الوقت الذي جعلوا من سجلماسة فى قلب الصحراء المغربية حاضرة لامارة خارجية وحلقة اساسية فى سلسلة المراحل التي تأوى اليها القوافل التجارية كما انه ليس من قبيل الصدف ان تتقلص الحركة التجارية بين الخليج والمغرب فى القرن الرابع الهجري فى نفس الوقت الذي تقلص فيه نفوذ الخوارج .

ومنذ ان استوثقت روابط المغرب بالصحراء فى القرن الخامس بدات اسواق النخاسة تتفق فى خفاء وكذلك كان الامر عندما شكل عنصر الزنج فى الدور العباسي الثاني (ما بين 233 هـ و 468 هـ أي 847 م 1075 م) طبقة متميزة فى المجتمع العربي وخاصة فى شمال الخليج فعززوا حركة الرق والنخاسة يساعدهم امتداد النفوذ الاسلامي الى افريقيا (أي تونس وجزء من الجزائر) وازدهار الملاحة العربية حيث ما فتىء الأيوليون أن سيطروا فى القرن التالي على الشق الشرقي لبحر العرب أي البحر الابيض المتوسط يساندهم فى الشق الغربي الموحدون الذين كان لهم اسطول من اربعمائة قطعة اعتبره المؤرخ الفرنسي اندري جوليان أعظم اسطول فى البحر المتوسط ولم يقبض العرب على زمام البحر الاحمر المتوسط فحسب بل أصبحوا سادة المحيط الهندي لا سيما بعد ان اكتشفوا الرياح الموسمية وسخروها لخدمتهم وانشأوا الموانىء والمنائر التي تشتعل فيها النيران ليلا لتهتدي بها السفن وعززوا المرافىء بمراكز الحاميات حفاظا عليها من القرصنة وغارات البدو ، وقد اشار ابن مرزوف فى « المسند الصحيح الحسن » (هسبريس (Hesperis) ج 5 عام 1925) الى وجود « مدارس ومناظر على طول الساحل بين اسفي (فى المحيط الاطلنطيقي) وجزائر بني مزغانة (عاصمة الجزائر الحالية) تتخابر فيما بينها باشعال النيران فى اعلاها وفى كل محرس رجال مرتبون ونظار وطلاع يكتشفون البحر فلا تظهر فيه قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين والتنبير يبدو فى المحارس للتحذير » .

وقد اشار البكري (افريقية والمغرب فى المسالك ص 35 و 48) الى محارس سوسة والمنستير وفى هذا العصر استعيض عن الموالي الصقالبة الذين نفقت نخاستهم منذ القرن الهجري واقترن اسمهم بها حتى صار الاوربيون يطلقون اسم الصقالبة (Slaves) على العبيد (Esclaves) (1) تقول استعيض عنهم بالزنوج الذين اصبح التجار المسلمون يأتون بأعداد ضخمة منهم وقد تجلت هذه الظاهرة بالقسم الشرقي من المغرب العربي اي فى تونس خاصة منذ استوطنت جماعات من الباطنيين والزيديين افريقية فرارا من الاضطهاد العباسي ثم استفحل ذلك عندما زج الفاطميون ـ اقتصاصا من بني زيري ـ بمائتي الف قرمطي من بني هلال وبني سليم الذين نشروا الدمار فى هذه البلاد مما حدا ابن خلدون الى التنكر فى القرن الثامن للعرب الذين لم يكن يقصد بهم سوى الاعراب وخاصة هؤلاء ولم تدخل الى المغرب من هؤلاء سوى فلول منتقاة كان الزمن قد عفى على عنجيتهم البدوية ونزعتهم القرمطية فكان لهم ضلع فى تعريب المغرب وشنقيط والواقع ان الباطنيين من القرامطة او اليديين قد عاثوا فسادا فى افريقية وجاس المغامرون منهم فى مجاهل الصحراء الافريقية لاصطياد الزنوج فى الادغال الكثيفة وفى هذا العصر حادت طريق البر فى شمال افريقيا عن خطها العادي لتتصل بالبصرة وبغداد وسوريا ومصر بواسطة الخط الساحلي على طول بحر

(1) صقلب هي أرض بالاندلس وصقلية حسب ياقوت (معجم البلدان ج 5 ص 372) ولعل قسما من الصقالبة ينسب اليها لا الى جنس السلاف

العرب على أن حركة القرامطة الابادية قد بدأت منذ سنة 315 هـ / 927 م حيث استولوا على البصرة وظلوا يعرقلون سير القوافل التجارية أو قوافل الحجيج لاعتقادهم ان الحج من شعائر الجاهلية بل من قبيل عبادة الاصنام ولذلك اجهز القرامطة على من سموهم بالكفار وعبدة الاحجار بمكة فردموا بئر زمزم وكدسوا جثث القتلى فى المسجد الحرام واندفعوا يخربون جوانبه بحرابهم وخيولهم فاحتملوا معهم الحجر الاسود الى الاحساء حيث بقي ملقى الى عام 339 هـ / 00 9م .

وبنو هذيل هؤلاء الذين حاولوا فى الخليج الوقوف فى وجه القرامطة منتهكي حرمة البيت هم الذين أشرنا الى اعتدالهم عندما هاجروا الى المغرب الاقصى فى القرن السادس الهجري بدعوة من المنصور الموحدي بطل معركة الأرك فى الاندلس .

ومهما يكن فان هذه الاحداث قامت حجر عثرة فى طريق المبادلات التجارية حيث ان الحشاشين من الاسماعيلية الباطنية امتدت جذورهم فى شرقي الخليج حتى خلال الحكم الايوبي الى الوقت الذي زحف المغول على فارس حوالي 659 هـ / 1260 م .

واذا كانت التجارة قد تقلصت فى هذه الفترة بين المغرب والخليج خاصة وبين الشرق والغرب عامة فان ذلك لم يكن يرجع بالنسبة للمغرب الى وجود هذه الطوائف الهدامة بل لأن هؤلاء كانوا منبثين على طول مراحل القوافل شرقا ينهبون ويقتلون ويدمرون ومع ذلك فان نفس العوامل كانت تدعم حركة النخاسة والمبادلات لا سيما بعد أن احتل ملوك المغرب السعديون السودان أوائل القرن العاشر الهجري ثم العلويون بعدهم عندما توغل زعيمهم السلطان المولى اسماعيل فى قلب الصحاري الى حدود غينيا وشكل جيشا من العبيد (أي الزنوج) ما لبث أن أعاد تاريخ ثورات الزنج بالشرق وخاصة بالخليج الا أن عنصرا جديدا ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر حيث حاول البرتغاليون الاستعماريون سد البحر الاحمر فى وجه السفن العربية للاستيلاء على مداخله تمهيدا لغزو الخليج العربي وكانوا قد انشأوا عام 1482 م فى ساحل الذهب أول مستعمرة لهم فى افريقيا وهنا يبرز دور المغرب فى انقاذ الخليج من ضغط الاستعمار البرتغالي ففى عام 1540 م دخل سليمان القانوني الى الخليج العربي من الشمال ونازل البرتغاليين فى معركة ميناء « مصوع » على الساحل الافريقي من البحر الاحمر حيث اندحر البرتغاليون أمام الاسطول العثماني غير انهم لم يكفوا عن مهاجمة المراكز العربية فى الخليج مضاعفين ضغوطهم على المغرب الذي انكفأوا اليه بعد أن قضوا على آخر من تبقى من العرب فى الاندلس تقتيلا وتهجيرا ولكن رد فعل المغرب الاقصى كان عنيفا ، ففى عام 986 هـ (1578 م) هاجم البرتغال بقضه وقضيضه شمال المغرب بقيادة ملكه الشاب الدون سبستيان (Don Sébastien) وبلغ جند البرتغال آنذاك مائة وخمسة وعشرين الفا وقطع اسطولهم الرابضة فى أصيلا والعرائش 847 وزحف الجيش البرتغالي الى وادي المخازن فى متم جمادى الاولى من نفس السنة أي رابع غشت عام 1578 م وكانت هجمة صليبية عززت فيها البابوية الزحف المسيحي على العالم الاسلامي شرقا وغربا باستنفار الدول الكاثوليكية وتعبئة شباب الفاتكان وكانت الحملة لاحتلال المغرب منسقة بقيادة البابا اقتصاصا من الوجود العربي بالاندلس وتعويضا للمسيحية عن فقدان روديس وجزء من هنغاريا والبابا الاسكندر السادس هو الذي أصدر مرسوم تقسيم العالم الى مناطق نفوذ بين اسبانيا والبرتغال عام 1494 غداة الكشف عن أمريكا ولكن أبى الله الا أن يهزم هؤلاء الاحزاب وينصر عباده المؤمنين فقتل ملك البرتغال وأسر جيشه وفر اسطوله فكانت هذه المعركة ـ كما يقول المؤرخ الفرنسي هنري طيراس ـ المعركة الفاصلة فى تاريخ الصراع بين المسيحيين والاسلام أنزلت ضربة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال مملكة البرتغال لأن الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة ظلت خلالها خاضعة هي نفسها للاسبان ولذلك تم خلال هذه الفترة اجلاء البرتغاليين عن منطقة البحرين التي احتلوها قرنا كاملا عام 1622 م اي بعد معركة وادي المخازن بأربع واربعين سنة ، كما طرد البرتغاليون عن مجموع مستعمراتهم على الشط العربي عام 1649 م الموافق 1059 هـ وبذلك تحرر العالم العربي من هيمنة البرتغال الذين لطخوا تاريخ العروبة والاسلام طوال اربعة قرون .

واذا كان الخليج العربي قد غدا منذ القرن الثالث البحري المرحلة الرئيسية فى تاريخ الملاحة العربية تمر به المراكب فى ذهابها وايابها بين اوربا والشرق الاقصى عبر البحر الابيض المتوسط فان كلا من الخليج والبحر المتوسط كانا عالة الواحد على الآخر واستمر هذا التساوق الى القرن العاشر

الهجري عندما كان مضيق جبل طارق هو الممر الفاصل بين المحيط الاطلنطكي والمتوسط فكانت مدينة سبتة منطلق المراكب التجارية الى ديار الهند وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني عام 857 هـ 1453 م وباستئصال شأفة الغزو البرتغالي في الخليج وتقليص ظلهم في سواحل المغرب شمالا وغربا تمكن العرب من الانتصار في الحرب الصليبية الثانية التي أججت أوربا نيرانها ضد العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتنطلق في حلقات أخرى من هذه الحرب بقيادة الهولنديين والانجليز والفرنسيين في كل من المغرب والخليج العربي ، غير أن حدثا جديدا كلل انبثاق العصر الحديث وانقضاء القرون الوسطى وهو اكتشاف امريكا عام 898 هـ / 1492 م من طرف كريستوف كولمبس ذلك الاكتشاف الذي يرجع الفضل فيه الى رجل من ابناء راس الخيمة على الشاطىء الغربي للخليج العربي ، وهذا الرجل هو ابن ماجد احمد السعدي اسد البحر ابن ابى الركائب الذي ساهم على غير قصد منه في تحطيم سيادة العرب على المحيط حين استعان به فاسكو دوغاما قائد الاسطول البرتغالي عام 1498 م لقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط الهندي وراس الخيمة هي احدى الامارات السبع التي ظلت الى منتصف القرن الثامن عشر عاصمة لجميع سواحل عمان وقد اقضت مضاجع اساطيل شركة الهند الشرقية في الخليجين والمحيط .

والغريب ان اكتشاف امريكا الذي نسبه الكثير من المؤرخين الى العرب يرجع الفضل فيه بالذات اما الى رجال الخليج قبل الميلاد أو الى عالم من علماء الاندلس والمغرب ، فقد تأكد ان الفنيقيين المنتسبين اصلا الى الخليج قاموا بدورة حول العالم طوال ثلاث سنوات طافوا خلالها حول افريقيا ووصلوا الى البرازيل واسسوا مملكة هناك ما زالت معالمها قائمة الى الآن ومن جملتها الحجارة المكتوبة باللغة البونيقة اي لهجة افريقيا الشمالية مما يدل ـ اذا صحت هذه الرواية ـ على أن القرطجنيين ـ وهم عرب فينيقيون تأقلموا في المغرب ـ هم الذين اسهموا مع المغاربة في اكتشاف امريكا على أن كريستوف كولومبس نفسه يعترف كما اورد ذلك المؤرخ الفرنسي رونان في كتابه « ابن رشد ومذهبه (Averroès et l'Averroïsme) بأن كولومبس ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بأن الذي أوعز اليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه « الكليات » في الطب على أن مجلة « نيوزويك » الامريكية اكدت في عددها الصادر في ابريل 1960 (راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص 13) ان الوثائق التي عثر عليها تثبت ان امريكا كانت معروفة للعرب « الذين قاموا ـ حسب تعبيره ـ قبل سنة 1100 م على الطرف الغربي للعالم الاسلامي ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد ورسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي » وقد ايد هذه النظرية (1) الدكتور لين شينج بائج استاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد كما ايدها الدكتور ريتشارد رودولف رئيس المؤتمر الذي عقدته الجمعية الشرقية الامريكية . وقد كان ابن عربي الحاتمي يرى أن وراء المحيط الاطلنطيقي اممًا وعمرانا وقد عاش قبل كولومبس بثلاثة قرون وتحدث محمود الاصفهاني (المتوفى عام 749 هـ) قبل كولومبس بمائة وخمسين سنة عن احتمال وجود ارض وراء المحيط كما ذكر ابن الوردي في جغرافيته أنه يوجد وراء الجزر الخالدات (اي كناريا) جزائر وصفها وصفا يكاد ينطبق على امريكا وقد عاش ابن الوردي قبل كولومبس بأكثر من مائة سنة (عبد القادر المغربي ـ محاضرات مجمع دمشق ج 2 ص 233) .

وهنا بدأت في المغرب والخليج فترة جديدة من الصراع تجلى في ظهور الانجليز على مسرح التجارة الخارجية حيث تنفسوا الصعداء من اندحار البرتغال فأقاموا في الشرق الشركة الهندية ، وفي المغرب شركة بربريا (Barbary Company) وبينما ارادوا ان يركزوا في الخليج وجودهم بملء ما تركه البرتغاليون من فراغ اذا بهم يكتفون في المغرب بالعمل على حماية صفاتهم التجارية من القرصنة وتأمين البحر المتوسط من غازات المراكب والسفن المغربية مما ادى ببعض الدول الكبرى كالدنمارك (2) والسويد وبعض المرافىء الحرة كهامبورغ وبريم بألمانيا الى دفع اتاوة سنوية خاصة للمغرب اعتصاما باسطوله من لصوصية البحر. وكان قراصنة المغرب قد مدوا شبكة غاراتهم الى المحيط الاطلنطيقي فواجهوا الانجليز في عقر ديارهم وقلصوا من جهة ثانية ضغط هؤلاء على الشرق العربي وخاصة الخليج لاضطرارهم الى الاحتفاظ بجزء من اسطولهم لحماية سواحل الجزر البريطانية الا ان الانجليز فوجئوا هنا وهناك في آن واحد على طول

(1) راجع الخليج العربي ـ قدرى قلعجي ص 56 .
(2) كانت الدنمارك تدفع سنويا للمغرب 51 000 ويكسدال اي ازيد من ربع مليون فرنك ذهبي .

طريق الهند المارة من جبل طارق بمزاحم جديد هو هولندا قامت هي الاخرى بتحدي القرار البابوي الهادف الى اقتسام العالم بين زعيمتي الكاثوليكية آنذاك اسبانيا والبرتغال وكان لقيام الحركة البروتستانية ضلع في دعم هذا الاتجاه فانشأ الهولنديون عام 1592 م شركة للتجارة مع الهند واتجه اسطول هولندي بين 1598 و 1601 م (موافق 1007 و 1010 هـ) الى المحيط الهندي عن طريق الممر الجديد برأس الرجاء الصالح للاتجار والغزو معا بينما عقدوا المغرب الاقصى معاهدة عام 1610 م للحصول على رسوم الاسبقية في التجارة الخارجية ، ولم يكد يهل عام 1640 م (1050 هـ) حتى احتل الهولنديون مكان الصدارة في الخليج العربي الا أن صراعهم ضد الانجليز ما فتىء ان استفحل بسبب تدخل القراصنة المغاربة الذين كانوا يعملون بغير قصد منهم على التخفيف من ضغط الفريقين على الخليج العربي ، فقد كان كل من الانجليز والهولنديين يناصب العداء للاسبان عدوهم المشترك سياسيا ودينيا واقتصاديا الا أن الهولنديين ظلوا يمدون سفن القرصنة المغربية بالعتاد ومواد السفانة وقطع الغيار بينما طفق الانجليز يواصلون حربا شعواء ضد هؤلاء القراصنة حتى اندلعت الحرب بين الطرفين عام 1652 م (1063 هـ) طوال عامين واتسعت شبكتها الى ما وراء البحار فاشتبك الاسطولان الانجليزي والهولندي في مياه الهند المؤدية الى الخليج ، والواقع ان القراصنة المغاربة قلصوا من نشاط الانجليز فتعطلت تجارتهم في الشرق في نفس الوقت الذي ادى حياد القراصنة بهولندا الى نوع من الحصانة تمتع به اسطولها في البحر المتوسط مما فسح لها مجال الضغط على الخليج ،

وقد احتفظ المغرب الاقصى باستقلاله في هذه الفترات بل انه احتفظ باستقلاله خلال الف عام (الى عام 1912 م) فكان القطر العربي الاسلامي الوحيد الذي ظل في منأى عن سيطرة الخلافة العثمانية والذي عرف كيف يستغل انتصاره في معركة وادي المخازن حيث اصبحت دول اوربا تخطب وده لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالامر الهين ولا بالشيء الذي يمر دون أن يثير اعجاب العالم مما حدا الانجليز الى مفاتحة المغرب في القيام بعمل موحد لخلق كوندومنيوم مشترك في الهند وفي عام 1600 م وجه المنصور الى اليزابيث ملكة انجلترا سفارة للقيام بمأمورية سرية من أجل تحقيق التحالف الانجليزي ضد اسبانيا وقد اقترحت ملكة انجلترا على السلطان اكتساح الهند بدل اسبانيا نظرا لكون فيليب الثاني يستمد موارده من الهند ، وقد شاطرها السلطان هذا الراي مطالبا لتمويل المشروع بمائة الف جنيه استرليني وانشغل المغرب في لم شتاته وتطوير صناعته فزرع قصب السكر (1) وفتح مصانع لتكريره فتنافس البلاطان الانجليزي والفرنسي على اقتنائه وصدره المغرب الى الشرق في جملة ما صدر من جلود وزيوت ومعادن (من نحاس ورصاص وحديد وقصدير بالاضافة الى ملح البارود والكبريت) واصبح للدينار المغربي نفاق في السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبي الى 3ر548 غرام وتهافت المضاربون من الانجليز على هذه العملية القوية يستعيضون بها عما خسروه من صفقات في الخليج (2) بل اصبح المغرب يدلي بدلوه في توجيه السياسة الاوربية وفي فتح قروض (ناب منها دولة هولندا مليون ونصف مليون دينار) واكتساح اوربا حيث وجه عملاء للدعاية

---

(1) كان السكر يصنع في شقي العروبة بافريقيا ومصر (الخطط للمقريزي ج 1 ص 203) وافريقية وخاصة في قابس وحلولا (المسالك للبكري ـ جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) وكانت معاصر السكر في المغرب تدر سنويا على المنصور السعدي أزيد من ستمائة الف أوقية ذهبية (وزن الأوقية 30 غرام تقريبا) وكان بالمغرب مناجم فضة وذهب (البكري) خاصة قرب سجلماسة (كتاب الاستبصار) والنحاس الخالص الذي لا يعدله غيره شرقا وغربا (الادريسي) بالاضافة الى القطن الذي كان يزرع بتادلا (وصف افريقيا للادريسي ص 50) وتطورت على يد الانجليز عام 1864 م في منطقة مدينة الجديدة صناعة قطن حريري شبيه بالقطن الامريكي كان نافقا في اوربا وذلك بالاضافة الى مصانع الطلس (Satin) ايام السعديين .

(2) كانت تنبكتو تؤدي الى المغرب جزية سنوية قدرها ستون قنطارا من التبر اي الذهب غير المسبوك مما جعل من المنصور الذهبي اعظم امير في العالم من حيث العملة وكان الانجليز يهربون الذهب في صناديق السكر المغربي .

لمنتجاته وسوائمه ومعادنه عاملا على حماية الصناعة الوطنية من المنزاحمة الاجنبية .

غير أن منافسا جديدا ما لبث أن برز هو الاستعمار الفرنسي الذي اضطر عدوتي الامس (هولندا وانجلترا) الى التحالف لدرء خطره الداهم ولكن ذلك لم يمنع فرنسا من تهديد مصالح الانجليز فى الخليج ، واستطاع نابليون أن يطأ تراب النيل فاتحا وان يهدد المولى سليمان ملك المغرب بالانقضاض عليه فى مائة الف من جنده اذا هو لم ينضم الى كتلة الحصار البري (Bloc continental) المضروب على الانجليز وكان اسطول القراصنة المغاربة يقض مضاجع الاوربيين فى المتوسط وفى عرض المحيط الاطلنطيقي الذي نقلوا اليه عملياتهم بعد أن أصبح طريقا جديدا الى الخليج ولم تكن علائق فرنسا مع المغرب مستوسقة بسبب ذلك الصراع البحري الذي جعل المغرب ينهج سياسة التدافع بين الدول الاوربية يثير هذه ضد تلك ويحالف جانبا للتملص من ضغط جانب آخر .

والواقع ان انقسام المغرب الى اقاليم مستقلة خلال القرن السابع عشر (قبيل توحيد المغرب على يد الدولة العلوية) هو نفسه الذي ترك ثغرات تسرب منها المستعمرون مثل ما وقع فى امارات الخليج بالنسبة للهولنديين والانجليز والفرنسيين .

ففي الوقت الذي اتسع نطاق التجارة الانجليزية فى الشرق وأوربا الشرقية أي القرن السادس عشر تزايد ايضا مع المغرب وحتى غينيا بافريقيا ، غير ان الفرنسيين كانوا قد بذوا حتى الهولنديين فى مبادلاتهم مع المغرب حيث دخلت فى عام واحد (1698 م) لمرسى سلا اربعون سفينة تجارية وتأسست بعد ذلك بسنتين شركة تجارية فرنسية اضطلعت باصدار المنتجات المغربية وقد بلغ عدد السفارات المغربية الى فرنسا نحوا من سبع وعشرين سفارة ، أولاها عام 1576 م والاخيرة عام 1909 اي قبيل الحماية بثلاث سنوات

كانت حجرة بادس تعتبر ميناء فاس فى البحر الابيض المتوسط ، وكان الاسطول التجاري لبعض الدول يرابط فيها الا ان القراصنة الجزائريين اتخذوها عام 1564 م (971 هـ) مقرا للهجوم على سواحل الاندلس واقتناص السفن المتوجهة للهند والخليج وكان قراصنة تطوان والعرائش يتعاونون معهم لأن القرصنة الجهادية كانت عبارة عن رد فعل المسلمين على ما لحق اخوانهم فى الاندلس من نفي وتنكيل وتقتيل وقد تحالف قراصنة سلا (وهم خليط من العرب والمسلمين والاعلاج من كافة سواحل المتوسط) مع الانجليز لمساعدتهم على احتلال جبل طارق وكانت معظم الدول الاسلامية المتوسطية تساند هذه القرصنة لا لكونها انطلاقة مشروعة ضد العدوان الايبري فحسب بل ايضا لأنها أعادت الى العرب سيادة المتوسط والمحيط وواجهت القرصنة المسيحية ونشرت الأمن والطمانينة فى البحار بالنسبة للسفن العربية والحليفة ، وكان معظم البوارج الحربية فى أوائل العهد العلوي (أي فى نهاية القرن السابع عشر) قد اقتنصها القرصان من الاسطول الفرنسي أو الهولندي أو الانجليزي واهمها تسع عشرة سفينة انجليزية واربع فرنسية مما يدل على هيمنة أسطول القرصان الجهادي، وقد بلغ عدد القطع البحرية الخمسين فى عهد المولى محمد بن عبد الله وسبعا واربعين أيام المولى سليمان ولكن المغرب ظل مع ذاك ينعم فى الحقل الدولي بمكانة ملحوظة مما حدا روسيا الى طلب انضمامه فى حرب القرم (1854 م – 1856 م) الى كتلة المحايدين واستدراجه للدخول الى الحلف الروسي الامريكي ضد تركيا وفرنسا وانجلترا ، وكان المغرب يشعر بأن انغماره فى هذا الحلف يعزز مركزه ضد الفرنسيين والانجليز الذين بدأوا يتنافسون لبسط نفوذهم على المغرب لا سيما بعد ما احتلت فرنسا الجزائر واجبرت المغرب على امضاء معاهدة لالة مغنية عام 1845 ولكن المغرب راعى ذمام الاسلام فلم يجرؤ على الدخول فى حلف موجه ضد تركيا المسلمية رغم كونها كانت حجرة عثرة فى سبيل وصل علاقاته مع الشرق العربي وخاصة الخليج منذ أن سيطر العثمانيون عليهما فى منتصف القرن الخامس عشر ، وتمتاز هذه الصلات العريقة بين الخليج العربي والمغرب الاقصي وهما شقان متنائيان للوطن العربي الممتد الى المحيط – بظاهرة هي اصالة معظم مصطلحاتهما الدارجة بالنسبة للفصحى ! ولا شك أن هذه الوصلة التي استوثقت عبر العصور راجعة بالاضافة الى العوامل التي اشرنا اليها كوحدة الاصل الكنعاني والتأثير الحميري المشترك الى وحدة المنبع المالكي فى مفرداته الفقهية ومصادر اقتباسه الحديثة والقرآنية ، ولا شك أن لرواج المصطلحات المالكية فى جميع المناحي الاجتماعية خاصة فى ابي ظبي اثرا قويا فى تكييف هذا التراث الوحدوي ، كما أن احتكاك التجار المغاربة بزملائهم الخليجيين قد خلف مجموعة من الالفاظ الدارجة اشرنا الى بعضها فى معجم خاص حاولنا فيه ابراز مظاهر الوحدة فى عاميتي المغرب والخليج ونشر فى مجلة اللسان العربي (عدد 5 –